اللغة العربية بأسيوط
المجـلة العلميـة

النغم الخفي
جناس الحرف الواحد
وألوان من الجناس في ديوان عبيد الأبرص

إعداد

د/ ناصر راضي الزهري إبراهيم
مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر في أسيوط

(العدد التاسع والعشرون – الجزء الأول يوليو ٢٠١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي هدانا إلى الصراط المستقيم ، وعصمنا من طريق المغضوب عليهم والضالين ، والصلاة ، والسلام على أشرف المرسلين ، وآله ، وصحبه أجمعين ، والتابعين إلى يوم الدين ، وبعد .

فإن الجناس يتميز بتأثيره القوي في استمالة المخاطبين لاعتماده الناحية الصوتية في التأثير في جمهور المتلقين مع الناحية العقلية التي تقوم على إدراك المفارقة المقصودة بين تشابه الألفاظ ، واختلاف المعاني ، ولا شك أن التأثير في المتلقين من أهم الأمور التي يسعى إليها الشاعر بشعره ، والناثر بنثره .

بل إن المتكلم الذي لا يعنيه فن القول في الخطاب الساذج يسعى إلى تحقيق ذلك لإقناع من يخاطبه بما يريد ، ومع تأثير الجناس الصوتي يترافق التأثير العقلي الذي يعتمد على المخاتلة ، والمفاجأة في تقرير المعنى ؛ لأن المبدع يأتي بلفظتين متشابهتين في حروفهما تشابها كلياً في الجناس التام ، أو جزئيا في الجناس الناقص ، فإذا سمع المخاطب اللفظة الأولى ، واستقر معناها في نفسه ،وعلق بوجدانه طرقت سمعه اللفظة الثانية بهذا التشابه ، فينتشي معنى الأولى في عقله ، وينتفش في وجدانه ، فإذا هو أمام معنى جديد يتقرر ، ويتأكد في طرافة تهش لها النفس ، وتبش .

لاسيما إذا صدر الجناس عفو الخاطر دون تكلف طبعياً جارياً من القلب على اللسان ، وهو ما استحسنه الجاحظ في الكلام ، إذ يرى أن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان [1].

وقد لفت نظري ، واستوقفني ، في أثناء دراستي للبديع عند الإمام عبد القاهر بين النظرية ، والتطبيق في بحث تحت هذا العنوان [1]حديث الإمام عبد القاهر المنصف في هذا الفن البديع من فنون القول ، والذي عدّه كثير من العلماء علم تزيين ضمن بقية علوم البديع الأخرى في حين جلّى الإمام عبد

---

١) ينظر البيان والتبيين ، أبو عثمان بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،، ج١ ، ص: ٨٣ مكتبة الخانجي للطباعة والنشر ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.

١ – البديع عند الإمام عبد القاهر الجرجاني – بين النظرية والتطبيق – إعداد د / د : ناصر راضي الزهري إبراهيم / بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر في أسيوط – في العدد الثامن والعشرين – الجزء الأول سنة ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٩م .

القاهر الجرجاني أبعاد المسألة ، وبيَّن مواضع حسنه ، ومواطن بلاغته ، وتأثيره القوي ، ومتى يستحسن ، ومتى يكره ، ويستقبح ، في موضوعية شديدة بالشاهد ، والدليل كعادة الرجل في تناوله للقضايا البلاغية ، واللغوية .

وقد وقفت مع الشيخ أبي موسى على كلام الإمام عبد القاهر في حديثه عن ألوان الجناس عامة ، وإشارته الدقيقة العميقة إلى ما أطلق عليه الشيخ الدكتور أبو موسى (جناس لم يثغر) وهو تتابع حرف معين في عدة كلمات ثلاثية .

وقفت وقفة –هناك– حول هذا اللون الخفي من التجنيس آثرت أن أستكملها في هذا البحث بما يوضح إشارة الإمام ، ويكشف أبعاد الموضوع الذي تطرَّق إليه الشيخ أبو موسى في المسألة ثم تركه بعد أن نبَّه إليه – كعادته في فتح أبواب البحث لغيره – فحرصت على أن أحاول دراسة المسألة بتوسع ، وتطبيقها على نموذج من الشعر الجاهلي في ديوان عبيد لخطر الموضوع ، وأهميته من جهة ، ولطرافته وجدته من جهة أخرى ، فهذا اللون الذي أشار إليه الإمام عبد القاهر بقوله : ((وضرب يجري في الخاطر) ([2]) بعد أن أشار إلى ألوان الجناس الاصطلاحية المعروفة – وسيأتي الحديث عن هذا في موضعه بالتفصيل – هذا اللون يكثر في كلام العربي حتى يصير كالجليل المسهو عنه .

وإحساس العربي بحروف لغته ، وما تحمل من طاقات إيحائية ، وتعبيرية في الأصوات جعله يستشعر صلة الصوت في الحرف بالمعنى ، ومناسبة الحرف في صوته لمعنى معين ، ومناسبة صوت في حرف آخر لمعنى آخر ، فجرى على قلبه ، وعقله في عصور طويلة حتى صار كالفطرة التي تجرى مجرى غيرها في فنون القول ، وقد تناول ابن جني هذه النواحي بالشرح ، والتفصيل – كما سيأتي –

وقد أدرك العربي هذا الأثر من أقدم عصوره ، فنجد الجناس – عموماً – يسكن خطب الخطباء ، وحكم الحكماء ، وقصائد الشعراء في أرقى عصور الفصاحة ، والبيان في العصر الجاهلي ، وقد أُستخدم كوسيلة جذب لانتباه المخاطب ابتداءً ، وتثبيت المعنى انتهاءً ، والمحافظة على سيطرة الأسلوب فيما بينهما ، كما أنه يساعد على حفظ القصائد ، والخطب ، وانتشارها بسبب النغم الأخَّاذ الذي ينبعث منه ، فيحدو به الحادون ، ويتسامر به المتسامرون ، ويصير حديث الركبان في الفيافي ، والعمران .

---

٢ – أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني /ص ١٩ ت : محمود محمد شاكر / الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩١م مطبعة المدني بالقاهرة .

سر اختيار ديوان عبيد الأبرص كنموذج للدراسة التطبيقية .

لما كان العصر الجاهلي عصر الذروة في الفصاحة ، والبيان ، وهو المقياس لغيره من الأزمان لصفاء القريحة ، وقوة الطبع ، والبعد عن التكلف ، لكل ذلك آثرت الدراسة أن تختار نموذج التطبيق للجناس عامة ، ولهذا النغم الخفي (جناس الحرف الواحد) خاصة من شعراء هذا العصر الذي يعتبر عمدة العصور في الفصاحة والبيان ، وقد وقع الاختيار على عبيد الأبرص ، وديوانه لتطبيق الدراسة النظرية عليه لأسباب متعددة منها :

١- شيوع ألوان الجناس في شعره ، وبروز هذه الظاهرة (جناس الحرف الواحد) عنده وميله إلى استخدام الكلمات المتماثلة ، أو المتشابهة ، والمتقاربة في الحروف

كقوله :

إمّا قَتيلٌ وإمّا هَالكٌ، ... والشّيبُ شَينٌ لمن يَشيبُ [٣]

وقوله :

فَقَدْ أَلِجُ الخِبَاءَ عَلَى عَذَارى ... كأنّ عُيُونَهُنَّ عُيُونُ عِينِ [٤]

فقد كرر حرف العين خمس مرات منها ثلاث في كلمات متتابعات كما كرر الياء ، والنون ، ثلاث مرات والواو مرتين في تتابع مكّن للجناس الاصطلاحي بحيث أشاع هذا التوزيع نغماً عذباً في البيت أكسبه خصوصية في موسيقاه الداخلية ، والخارجية ، وسنرى ذلك واضحاً جلياً عند استعراض ألوان الجناس عنده .

٢- كون عبيد بن الأبرص من الشعراء الجاهليين المتميزين في فنون الشعر ، ومعلوم أن شعراء الجاهلية أهل فطرة في القول ، وأبعد عن التكلف ، ووجود لون معين من ألوان البديع عندهم دليل على استدعاء الفطرة السليمة ، والبعد عن التكلف في جلبه كما حدث بعد عند المولدين .

٣- كون عبيد بن الأبرص من أصحاب المعلقات المعدودة من عيون الشعر العربي الأمر الذي يؤكد تفوقه في هذا الفن ، ورسوخ قدمه في تعاطي ألوان البيان ، والمعاني ، والبديع بفطرة سليمة، وحس راق، وذوق رفيع على ما هو معلوم عند أصحاب

٣ ديوان عبيد الأبرص / ٢٠ ت / أشرف أحمد عدرة / الطبعة الأولى سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م دار الكتاب العربي – بيروت .

٤ – ديوان عبيد الأبرص / ١٢٣ .

المعلقات إضافة إلى ما يتميز به الرجل من الصفات النفسية، والخلقية التي ضمنت شعره كثيراً من الحكم، وتجارب الحياة التي ساعدت في صقل موهبته، ودعَّمت قدرته على الإبداع ، والتميز .

خطة البحث

المقدمة .

وتشمل : – سبب اختيار الموضوع .

– سر اختيار ديوان عبيد بن الأبرص .

التمهيد .

ويشمل : – التعريف بعبيد الأبرص .

– من هو عبيد الأبرص .

– صفاته وأخلاقه.

– منزلته .

– شعر عبيد في ميزان النقاد .

المبحث الأول .

ألوان من الجناس في شعر عبيد الأبرص ، وشغفه بها .

– الجناس في شعر عبيد الأبرص .

– الجناس التام – الجناس غير التام – جناس القلب – الجناس المذيل – الجناس المطرف – الجناس المضارع – جناس الازدواج .

– شغف عبيد بالجناس خرج به إلى التكلف – أحياناً .

المبحث الثاني .

علاقة حرف المبنى بالمعنى الذي يؤديه اللفظ الوارد فيه وجناس الحرف الواحد .

– هل هناك علاقة بين حرف المبنى والمعنى الذي يؤديه اللفظ الوارد فيه ؟

– حديث ابن جني عن المعنى الناشب في أصل الحرف .

– إشارة الإمام عبد القاهر إلى جناس الحرف الواحد .

– وقفة الشيخ أبي موسى عند إشارة الإمام عبد القاهر .

المبحث الثالث .

النغم الخفي – جناس الحرف الواحد في شعر عبيد الأبرص ، وعلاقته بمعانيه .

– عبقرية عبيد الأبرص في رصد خصوصية الحرف ، وإحساسه بطبيعته ، والمعنى الذي يشارك في كشفه .

- ميل عبيد إلى تكرير حروف معينة لصلتها بالمعنى الذي يريده .
- إكثار عبيد من الربط بالفاء خاصة بين الأماكن وسره .
- ترديد عبيد لحروف معينة في أسماء لها فضل تعلق بقلبه ، وعقله .
- جناس الحرف الواحد ليس قاصراً على عبيد وحده .

الخاتمة

الفهارس

التمهيد

(التعريف بعبيد الأبرص ، وشعره)

من هو عبيد الأبرص ؟

عبيد الأبرص شاعر جاهلي (٥) من فحول الجاهلية الذين سطروا لهم مجداً تليداً بحسن البيان ، وقوة الجنان ، وسلامة الفطرة ، وقوة الملكة ، وشعره كان – ككثير من شعراء الجاهلية – مرجعاً لكثير من اللغويين ، والنحويين ، فقد استشهد ابن منظور بشعره في أكثر من أربعين موضعاً في معجمه لسان العرب (٦) .

كما استشهد بشعره كثير من أهل اللغة ، والنحو ، والأدب ، وعبيد معدود من أصحاب المعلقات العشر عمَّر طويلاً ، وأكسبه طول العمر خبرة واسعة بأمور الحياة ، وحكمة نثرها في ثنايا شعره ، وقد ذكرت بعض المصادر أنه عاش ثلاثمائة عام ، وبعضها يذكر أن عاش مائتي عام ، وبعضها يذكر أنه عاش مائة عام ، ويذكر عبيد في شعره طول عمره ، وأنه بلغ المائتي سنة ، وعشرين سنة قال :

ولتأتين بعدي قرون جمَّة ... . ترعى مخارم أيكة ولدودا
فالشمس طالعة، وليل كاسف ... والنجم يجري أنحساً وسعودا
حتَّى يقال لمن تعرَّق دهره ... يا ذا الزّمانة هل رأيت عبيدا
مائتي زمان كامل ونضيَّة ... عشرين عشت معمَّرا محمودا (٧)

وهذا الطول في العمر لابد أن ينعكس بوجه ما على رؤيته للحياة ، وخبرته فيها ، وحسن تدبر الأمور ، وعمق النظرة كما انعكس على موهبته ، فصقلها ، وفصاحته ، فعززها ، ولغته ، فنقاها ، وصورها ، فأبدعها ، وخيالاته ، فغزاها ؛ فصار ذا صبغة خاصة تميِّزه عن غيره .

---

٥ الأعلام للزركلي جـ ٤ / ١٨٨ / و جـ ٨ ص : ٤٨ / الطبعة: الخامسة أيار (مايو) ١٩٨٠ / ط دار العلم للملايين .

٦ ينظر – على سبيل المثال – المواضع في جـ ١ / ١٤٥ ، ٣١٤ ، ٣٩٣ ، / جـ ١٥ / ص ١٠ ، ١١١ ، ٣٩٦ في لسان العرب لابن منظور/ الطبعة الأولى / دار صادر – بيروت – .

٧ ديوان عبيد الأبرص / ٤٨ .

أما عن نسبه فاسمه عبيد بن الأبرص بن جشم بن عامر بن مالك بن الحارث بن ثعلبة بن أسد ، ويتصل نسبه بمضر ، وهذا النسب يشير إلى أنه ولد في واحدة من أفصح القبائل العربية الضاربة في عمق العربية ، مما هيأ لهذه الملكة الكامنة في وجدانه من الانطلاق . (٨)

صفات عبيد بين الفروسية ، والشعرية .

إذا كانت رموز القبيلة عند العربي في الجاهلية تتمثل في ثلاثة – القائد ، والفارس ، والشاعر ، فإن عبيد بن الأبرص كان له النصيب الأوفر منها جميعاً .

فيروى أن عبيداً كان فارساً شجاعاً ، وسيداً من سادات قومه بني سعد من بني أسد ، وقد عاش شجونهم ، وشؤونهم ، وكان شاعرهم دون منازع ، والناطق باسمهم ، والمشيد بمآثرهم ، وانتصاراتهم ، ورسولهم إلى الملوك ، والسادات ، والهاجي لخصومهم ، والذّاب عنهم بلسانه ، وسيفه ، ولا شك أن تلك المنزلة ساعدت في تفجير ينابيع البيان في قلبه ، وعلى لسانه ، وألهبت حفيظته ، وكانت من أعظم الدوافع على القول ، والإجادة .

كما تميز عبيد برجاحة العقل ، وحصافة الرأي ، وبعد النظرة ، والخبرة ، والدراية ، وتدبر الأمور ، وحسن معالجتها ، كما اتصف بالخلق الكريم ، والحكمة ، وقد أكثر من ذكر الثواب ، والعقاب ، والتأمل في الوجود ، والمصير ، والحض على الخير ، والتحلي بالخصال الحميدة كقوله :

ما تبتغي من بعد هذا عيشة ... إلاّ الخلود، ولن ينال خلودا

وليفنين هذا وذاك كلاهما ... إلّا الإله ووجهه المعبودا (٩)

وهذه الخلال لها بعد نفسي عظيم الأثر على المعاني القابعة في شعره ، والمنثورة في عباراته .

وقد أحاطت بعبيد الأبرص بعض القصص التي تشبه الأساطير بسبب موهبته ، وتفتيشاً عن سرها فزعموا أن له شيطاناً يسمى هبيد كان يملي عليه الشعر ، وقد رووا لهبيد هذا شعراً ، وزعموا أنه أراد أن يلهم الشعر أناساً غيره فلم يوفق .

ومما يروى من ذلك ما نقل صاحب الجمهرة قال : قال : (ابن المروزي: حدثني أبي قال: خرجت على بعير لي صعب، يمر بي لا يملكني من أمر نفسي شيئاً، حتى مر على جماعة ظباءٍ في سفح جبل على قلته رجلٌ عليه أطمارٌ له، فلما رأتني الظباء هربت، فقال: ما أردت إلى ما صنعت؟ إنكم

٨ الأعلام للزركلي جـ ٤ / ١٨٨ / و جـ ٨ ص : ٤٨.

٩ ديوان عبيد الأبرص / ٤٩ .

لتعرضون بمن لو شاء قرعكم عن ذلك، قال: فدخلني عليه من الغيظ ما لم أقدر أن أحمله، فقلت: إن تفعل بي ذلك لا أرضى لك، فضحك، ثم قال: إمض عافاك الله لبالك، قال: فجعلت أردد البعير في مراعي الظباء لأغضبه، فنهض وهو يقول: إنك لجليد القلب! ثم أتاني فصاح ببعيري صيحةً ضرب بجرانه الأرض، ووثبت عنه إلى الأرض، وعلمت أنه جان، فقلت: أيها الشيخ! إنك لأسوأ مني صنيعاً. فقال: بل أنت أظلم وألأم، بدأت بالظلم ثم لؤمت في تركك المضي، فقلت: أجل! عرفت خطئي. قال: فاذكر الله فقد رعناك، وبذكر الله تطمئن القلوب، فذكرت الله تعالى، ثم قلت دهشاً: أتروي من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال: نعم ! أروي وأقول قولاً فائقاً مبرزاً. فقلت: فأرني من قولك ما أحببت، فأنشأ يقول:

طافَ الخيالُ علَينا لَيلةَ الوادي، ... من آلِ سَلمى ولم يُلممْ بميْعادِ
أنّى اهتَديتَ إلى مَن طالَ لَيلُهُمُ ... في سَبسبٍ ذاتِ دَكْداكٍ وأعقادِ
يُكَلِّفُونَ فَلاها كلَّ يَعْمَلَة ... مثلَ المَهاة، إذا ما حَثَّها الحادي
أَبلِغْ أبا كَرَبٍ عنّي وأُسْرَتَهُ ... قولاً سَيَذهَبُ غَوراً بعدَ إنجادِ
لا أعرِفَنَّكَ بَعْدَ اليَومِ تَندُبُني ... وفي حَياتيَ ما زَوَّدْتَني زادي
أمّا حِمامُكَ يوماً أنتَ مُدرِكُهُ ... لا حاضرٌ مُفلتٌ منهُ، ولا بادِ (١٠)

فلما فرغ من إنشاده قلت: لهذا الشعر أشهر في معد بن عدنان من ولد الفرس الأبلق في الدهم العراب هذا لعبيد بن الأبرص الأسدي، فقال: ومن عبيد لولا هبيد! فقلت: ومن هبيد؟ فأنشأ يقول: المتقارب

أنا ابنُ الصّلادمِ أُدعى الهبيدَ، ... حبَوتُ القَوافيَ قَرْمَيْ أسَدْ
عَبيداً حَبَوتُ بمأثورَة، ... وأَلطَفْتُ بشراً على غَيرِ كَدّ
ولاقَى بمُدرِكَ رَهطُ الكُمَيتِ ... مَلاذاً عَزيزاً ومَجداً وَجَدّ
مَنحاناهُمُ الشِّعرَ عن قُدرَةٍ ... فهَل تَشْكُرُ اليَومَ هذا مَعَدّ

فقلت: أما عن نفسك فقد أخبرتني، فأخبرني عن مدرك، فقال: هو مدرك بن واغم، صاحب الكميت، وهو ابن عمي، وكان الصلادم وواغم من أشعر الجن، ثم قال: لو أنك أصبت من لبنٍ عندنا؟ فقلت: هات، أريد الأنس به، فذهب فأتاني بعسٍّ فيه لبن ظبي، فكرهته لزهومته فقلت:

١٠ ديوان عبيد الأبرص ٥٥.

إليك، ومجحت ما كان في فمي منه، فأخذه ثم قال: امض راشداً مصاحباً! فوليت منصرفاً فصاح بي من خلفي: أما إنك لو كرعت في بطنك العس لأصبحت أشعر قومك. قال أبي: فندمت أن لا أكون كرعت عسه في جوفي على ما كان من زهومته، وأنشأت أقول في طريقي، الطويل

أسِفتُ على عُسِّ الهَبيدِ وشُربِه، ... لَقَدْ حَرَمَتْنيه صُرُوفُ المَقادِرِ

ولو أنّي إذْ ذاك كنتُ شَرِبتُهُ ... لأصْبَحتُ في قَوميْ لَهم خيرَ شاعرِ (١١)

ومثل هذه القصص كانت تنسج عادة حول الشعراء الذين يتميزون بعبقرية خاصة ، وإبداع يذهل المتلقين فينشغلون بسر هذه العبقرية ، وسبب هذا الإبداع ، فيفسروها بتفسيرات مختلفة بعضها بعيد عن الواقع ، ولكنها في النهاية تعكس شدة إعجاب الناس بهذا الشاعر ، وقد ورد في شعره ما يروج لهذه القصص كقوله :

لله در الغول أي رفيقةٍ ... لصاحب قف خائفٍ متقترِ!

أرفت بلحنٍ فوق لحنٍ وأبعدت ... حوالي نيرانا تبوخ وتزهر (١٢)

ويستشف من أشعار عبيد ، وامرئ القيس أنهما عالجا موضوعات واحدة ، وربما اشتركا في منافرات ودية قبل حصول العداء بينهما إثر مقتل حجر والد امرئ القيس على يد بني أسد ، وتظهر المقارنة بين قصائدهما أنهما يستمدان من ذخيرة شعرية واحدة في العبارات ، والموضوعات .

منزلته الشعرية .

اختلفت وجهة نظر النقاد حول منزلة عبيد الأبرص فمنهم من عده من الفحول ، ومنهم من لم ير ذلك ، وبعضهم ردَّ شهرته إلى شخصيته ، وأخباره الأسطورية ، وليس لشعره ، غير أن ابن سلام الجمحي عدَّه في الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية ، وجعل بعده طرفة ، وقرن بهما علقمة ، وعدي بن زيد ،(١٣) وهو معدود من أصحاب المعلقات العشر (١٤) ، وقد جعله صاحب الجمهرة في الطبقة الثانية من أصحاب المجمهرات التي تلي المعلقات مكانة ، ومقاماً . (١٥)

شعر عبيد الأبرص .

١١ جمهرة أشعار العرب في الجاهلية ، والإسلام / المؤلف : أبو زيد القرشي ٤٨ ٢- ت محمد على البيجاوي - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٨١.

١٢ محاضرات الأدباء / المؤلف : الراغب الأصفهاني/ جـ ٢/ ١٠١ .

١٣ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ص ٥٨ .

١٤ المعلقات العشر ،وأخبار شعرائها للشيخ محمد الأمين الشنقيطي / ص ٨٦: ط دار النصر للطباعة والنشر .

١٥ - جمهرة أشعار العرب في الجاهلية ، والإسلام / لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي ص : ٣٧٩.

عبيد الأبرص من أصحاب المعلقات العشر المعدودة من عيون الشعر العربي ، وهو كغيره من شعراء الجاهلية تميز بالفصاحة ، ووضوح الصورة ، وسلاسة العبارات ، ولم يخرج عن عمود الشعر الجاهلي .

وإذا قرأت شعر عبيد تشعر فيه بنغم عذب ساحر ، فإذا ذهبت تبحث في أسرار الجمال فيه بقدرتك البيانية أدركت كثيراً من أسباب براعته ، وقدرته ، التي ترجع إلى حسن تصرفه في فنون القول ، ودقة الأداء ، ثم يبقى في نفسك شيئاً تشعر به ، ولا تكاد تحيط به وصفاً ، وهو شئ من عبقرية الأداء العالي ، في الفطرة الجاهلية التي احتوت روحه ، ودبَّت في أرجاء وجدانه شعوراً تملاه بكل حرف من حروفها ، فأبدع فيها بإحساسه ما أبدع فيها بمهارته البيانية .

ومن الطبعي أن تلك الروح الشاعرة لا تظل على نفس الدرجة من القوة ، والضعف ؛ لذلك لم يأت شعره على نمط واحد في القوة ، والضعف ، وكثير من السمات، بل اختلف من قصيدة إلى أخرى ، فوفق في بعضها في اختيار البحر المناسب للموضوع ، وفي بعضه لم يوفق لكنه استطاع في كل ذلك التعبير عن مشاعره بصدق يأسر وجدان المخاطب .

أما ألفاظه فجأت متناسبة مع الموضوع الذي يتحدث فيه من حيث الرقة ، والخشونة ، والغرابة ، ففي حديثه عن ناقته ، وفرسه ، وحروبه ، وأسفاره كان يستخدم ألفاظا غريبة ، وصوراً مستمدة من البيئة القاسية ، وعندما يتحدث عن مشاعره ، فإن أسلوبه يرق ، ويلين ، ويكتسي شيئاً من طبيعة المعنى .

ويلاحظ أن صوره فطرية مستمدة من البيئة المادية التي تعتمد على الخيال الحسي كما أنه ألقى الضوء على كثير من الجوانب التاريخية ، والأحداث التي وقعت في عصره قال عنه محمد بن سلاّم الجمحي – وجعله في الطبقة الرابعة – ، قال فيه: "عبيد بن الأبرص قديم الذكر عظيم الشهرة، وشعره مضطرب، ذاهب لا أعرف إلاّ قوله في كلمته: أقفر من أهله ملحوب، ولا أدري ما بعد ذلك". (١٦)

١٦ طبقات فحول الشعر ، لابن سلام الجمحي ص ٥٨ .

المبحث الأول

الجناس في شعر عبيد الأبرص .

من يتأمل الجناس في شعر عبيد الأبرص يجد أنه من أكثر الألوان البديعية انتشاراً في شعره لأنه كان لديه ميل إلى التجنيس ، والمزاوجة ، والجمع بين الكلمات المتشابهة في أصواتها ، حتى في كلامه المنثور .

وقد التقط الناس من كلامه كثيراً من الحكم التي أرسلها أمثالاً ، والتي تتضمن الحكمة في معناها ، والجمال ، والإتقان في مبناها من خلال اللفظ الرنان العذب الحامل للمعنى الجذل ، و- غالباً – ما يكون الجناس عنصراً أساسياً في هذا الجمال كما في قوله : (حال الجريض دون القريض) ، الجريض أن يجرض الإنسان ، وهو أن يغص بريقه عند الموت ، والقريض الشعر ([17]) ضُرب مثلاً للمعضلة تعرض، فتشغل عن غيرها ، وأثر الجناس ملموس في العبارة بين لفظتي (الجريض ، والقريض) من حيث جمال العبارة ، وقبولها في النفس ، وعلوقها بالخاطر مما يحقق لها الذيوع ، والانتشار .

وقوله (لا يرحل رحلك من ليس معك) ([18]) أي ليس معك هواه، ولا له بك عناية، والجناس بين (يرحل ، ورحلك) ، ولا يخفى أثره في رونق اللفظ ، وتوكيد المعنى ، وكقوله (المنايا على الحوايا) ، وغيرها من الحكم التي كثرت في كلامه ، والذي صقلها طول العمر ، والخبرة بدروب الحياة ، وطُبعت بطابع الروح الشاعرة التي بين جنبيه .

كما كان الجناس عنصراً أساسياً في شعره فلم تكد تخل منه قصيدة ، ولا مقطوعة إلا القليل جداً ، وهذا الأمر يشير إلى إدراك عبيد لقيمة الجناس في استمالة المستمعين ، وتيسير الذيوع ، والانتشار لهذا الشعر ، وهو ما كان يصبو إليه وسط فحول الشعراء في عصره ، وفي شعر من سبقوه .

والجناس الطبعي يساعد على ذلك ؛ لأنه يستحوذ على عناية المخاطبين بعد أن يلفت انتباههم ، ويطرق أسماعهم ، وهو (في علم البديع ، لون من أجمل تلك الحلى البديعية ، وفن بلاغي لفظي ، ومعنوي بالغ التأثير ، والقيمة في التعبير ، فما يحدثه من أثر إيقاعي ، وصوتي على أذن السامع

---

١٧ المستقصى في أمثال العرب ، : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري / جـ ٢ / ٥٥/ الطبعة الثانية ، ١٩٨٧ / دار الكتب العلمية – بيروت .

١٨ الأغاني / لأبي الفرج الأصفهاني / جـ ٢٢ ص : ٩٢/ ت – سمير جابر / الطبعة الثانية / دار الفكر – بيروت .

، والمتلقي ، تجعله أشد " ميلاً إلى الإصغاء ، والتلذذ بنغمته العذبة ، وتجعل العبارة على الأذن سهلة مستساغة ، فتجد من النفس القبول ، وتتأثر به أيما تأثير ، وتقع من القلب أحسن موقع "(٢).

والذي يبدو من شعر عبيد ، ويؤكده واقع عصره ، وأحوال معاصريه أنه كان يتعرض لمنافسة قوية من شعراء عصره ، وفيهم من الفحول من لا يُقام له كامرئ القيس ، وغيره ، وقد ثبت أنه كان ينافسه ، ويباريه ، وبينهما مساجلات ، ومنافرات منها ما روى : أن عبيد بن الأبرص لقي امرأ القيس، فقال له عبيد: كيف معرفتك بالأوابد ؟ فقال: ألق ما أحببت. فقال عبيد:

ما حبة ميتة أحيت بميتها ... درداء (١٩) ما أنبتت سنا وأضراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الشعيرة تسقى في سنابلها ... فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد:

ما السود والبيض والأسماء واحدة ... لا يستطيع لهن الناس تمساسا

فقال امرؤ القيس:

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها ... روى بها من محول الأرض أبياسا

فقال عبيد:

ما مرتجات (٢٠)على هول مراكبها ... يقطعن طول المدى سيراً وإمراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك النجوم إذا حانت مطالعها ... شبهتها في سواد الليل أقباساً

فقال عبيد:

ما القاطعات لأرضٍ لا أنيس بها ... تأتي سراعاً وما ترجعن أنكاساً

فقال امرؤ القيس:

(٢) البديع في ضوء أساليب القرآن ، د :عبد الفتاح لاشين .. ص : ١٥٥ – الناشر دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة ،١٩٩٧.

١٩ الدَّرْد ذهاب الأسـ .. د: درداً ورجل أدْرَدُ ليس في فمه سن بيّن الدَّرَد والأنثى دَرْداء (لسان العرب ج ــ ٣ / ص ١٦٦ .

٢٠ النوق الموثقة الخلق السريعة (لسان العرب ج ــ ٢ / ص ٢٧٩) والأمراس الحبال والعرب تشبه النجوم في السماء بأنها موثقة بالحبال ينظر ديوان عبيد الأبرص : ٦٦

تلك الرياح إذا هبت عواصفها ... كفى بأذيالها للترب كناساً

فقال عبيد:

ما الفاجعات جهاراً في علانيةٍ ... أشد من فيلقٍ مملوءة باساً

فقال امرؤ القيس:

تلك المنايا فما يبقين من أحدٍ ... يكفتن[٢١] حمقى وما يبقين أكياساً

فقال عبيد:

ما السابقات سراع الطير في مهلٍ ... لا تستكين ولو ألجمتها فاساً

فقال امرؤ القيس:

تلك الجياد عليها القوم قد سبحوا ... كانوا لهن غداة الروع أحلاساً

فقال عبيد:

ما القاطعات لأرض الجو في طلقٍ ... قبل الصباح وما يسرين قرطاساً

فقال امرؤ القيس:

تلك الأماني تتركن الفتى ملكاً ... دون السماء ولم ترفع به راساً

فقال عبيد:

ما الحاكمون بلا سمعٍ ولا بصرٍ ... ولا لسانٍ فصيح يعجب الناسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الموازين والرحمن أنزلها ... رب البرية بين الناس مقياساً [٢٢]

ومع أن هذه المساجلة دار حولها شك في نسبتها إليه كبعض أشعاره التي نسبوا بعضها لغيره إلا أن هذا لا ينفي وجود صراع أدبي بين عبيد الأبرص ، ومعاصريه من الشعراء ، وقد آثرت أن أذكر هذه المساجلة بتمامها رغم طولها حتى يتبيَّن صعوبة أمثال هذه المنافسات الأدبية حيث إن الشاعر فيها لا يكون حراً في اختيار الموضوع ، أو البيت البحر الذي ينظم عليه شعره ، أو يختار القافية التي يريد ، وإنما يقيد بالموضوع عن طريق السؤال الذي يجيب عنه ،وبنفس القافية ، وعلى البحر نفسه الذي ورد في السؤال .

٢١ يكفتن أي يقبضن، أو يأخذن أخذاً شديداً ينظر لسان العرب ج ـ ٢ / ص ٧٨ .

٢٢المحاضرات في اللغة والأدب جـ ١ ص : ١١٧ ، و ديوان عبيد الأبرص ص / ٦٦ .

ومبادرة عبيد بن الأبرص لامرئ القيس بالسؤال فيها ذكاء منه ، وفطنة ؛ لأنه جعله في موقف المدافع المسئول الذي يتردد بين الإجابة ، وبين العجز ، وبذلك يضمن عبيد أحد أمرين : أولهما أن يعجز خصمه ، وبذلك يحقق تفوقه ، ويبين فضله عليه ، والآخر أن يجيب . وبذلك يكون قد نجا هو من مفاجأته بما قد لا يجد له جواباً شافياً .

وهذه المنافسات التي احتدمت بين عبيد ، وغيره من الشعراء دعته إلى تمحيص شعره ، وبذل موهبته ، والتدقيق فيما يقول ، والبحث عن ميزات ترفعه عن غيره من الشعراء ، ومنها المحسنات البديعية المتوغلة في صلب المعاني ، والتي تحقق جذب السمع ، وإصغاء القلب ، وثبات المعنى في الوجدان ، وهو ما يحقق تفوقاً نسبياً في إطار المنافسات الأدبية التي تقام في الأسواق ، والمنتديات التي يُحكم فيها بالغلبة ، والتفوق ، والسبق لمن استطاع جذب الأسماع ، ولفت الأنظار ، والسيطرة على عقول المخاطبين ، ووجدانهم .

والنغم الآثر للجناس من أكثر العوامل المساعدة على تحقيق ذلك حيث إنه يساعد على تقرير المعنى المراد ، فإذا تقرر أكّده ، وإذا أكّده ثبّته بجمال النغم ، فيسّر حفظه ، وساعد علي انتشاره ، وذيوعه ، وطار ذكر قائله في الأفاق .

وأكثر ألوان الجناس ظهوراً عنده هو الجناس الناقص ، والمتأمل لهذا النوع من الجناس خاصة ، والجناس في شعر عبيد عامة يجد شيوع ألوان الجناس بمختلف أشكاله في شعره منثوراً بطريقة متناسبة مع مساحة المعنى خادماً له ، وإذا كان الجناس ، وهو تشابه لفظين ، مع اختلافهما في المعنى ، والذي يحدث خلابة ، ويكسب العبارة حيوية تبعث على متابعة المعنى ، وتنبه له ؛ وتيسر حفظه ، وتجعله حديث الركبان ، فإن فطنة عبيد ، وذكاءه ، وخبرته الطويلة ساعدته على حسن استغلال الجانب الخلاب في هذه الألوان ، والذي يجذب السمع ، ويأسر الوجدان ، ويوقظ المخاطب .

وقد أشار الإمام عبد القاهر إلى مراتب الجناس، ودرجات التأثير فيها ، وأن المعنى الذي يترآى للنفس ، والخيال الذي يلوح في العقل نوعان : الأول ما يقوى في العقل حتى يصير اعتقاداً . وذلك لقوة الشبه بين الكلمتين بحيث تكون إحداهما في نفس صورة الأخرى كما مر في الجناس التام ، والجناس المرفو ، فيتوهم السامع أنها الأولى ، فإذا ما وقر المعنى في نفسه ، ووعاه قلبه أدركته لذة ، وعلاه العجب ، وكان لها في نفسه فضل تمكن .

والنوع الثاني : لا يبلغ في العقل هذا المبلغ ، وإنما يلوح له من جانب ، ويخفى عنه من جانب، وكأنه يداعبه ، ويلاعبه قبل أن يصل به أحد الشاطئين شاطئ المعنى الأول الذي لم يغادره وشاطئ المعنى الثاني الذي لم يصل إليه ، فإذا تم المعنى ، وأدركه السامع كان لذلك أثره في نفسه ، وهو ما يحدثه الجناس الناقص ، والجناس المذيل .

وقد أشار الإمام إلى ذلك في قوله (فالذي يجب عليه الاعتماد في هذا الفنّ، أن التوهُّم على ضربين: ضربٍ يستحكم حتى يبلُغ أن يصيرَ اعتقاداً ، وضربٍ لا يبلغ ذلك المبلغ ، ولكنه شيءٌ يجري في الخاطر، وأنت تعرف ذلك ، وتتصور وَزْنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشَبَهَ التامَّ ؛ والشيئين يشبه أحدُهما بالآخر على ضرب من التقريب ، فاعرفه)[٢٣]

و من أقسام الجناس التي وردت عند عبيد الأبرص الجناس التام : وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان في أمور أربعة :نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، وترتيبها مع اختلاف المعنى، كقول عبيد الأبرص :

هل نحن إلا كأجساد تمر بها ..... تحت التراب وأرواح كأرواح [٢٤]

فالأرواح الأولى جمع روح ، والثانية جمع ريح ، فهذا الجناس بما يحدثه من تماثل لفظي ، وصوتي يخدع عن المعنى ، وقد أعطى الزيادة ، ويحمل على توهم التكرار، مع إفادته التجديد ، والابتكار. وذلك قمة الأداء البلاغي ، والتأثيري في البيت ، وكقوله :

إننا إنما خلقنا رؤوساً ..... من يسوي الرؤوس بالأذناب [٢٥]

والمقصود بالرؤوس الأولى أهل الرياسة ، والتقدم ، والزعامة ، والمقصود بالثانية العضو في الكائن الحي جمع رأس ، ولا يخفى ما فيه من التأكيد للمعنيين مع مداعبة العقل ، وإرضاء الخاطر ، وإكساب العبارة لوناً من ألوان الحيوية في الأداء .

٢ ــ الجناس غير التام: وهو ما اختلف اللفظان في أحد الأمور الأربعة المذكورة (النوع والعدد والهيئة والترتيب).

---

٢٣ أسرار البلاغة / ١٩ .

٢٤ ديوان عبيد الأبرص / ص ٤٤ .

٢٥ ديوان عبيد الأبرص / ص ٣٧ .

وقد كثر الجناس الناقص عند عبيد الأبرص ، ولعل هذا يرجع إلى إحساسه بطبيعة تأثير هذا اللون من الجناس حيث إنه يوهم المخاطب بأنه سيعيد اللفظ الأول بعينه ، وإذا به يأتي بلفظ مخالف في سرعة تحقق انتعاشة في الفكر ، ويقظة الوجدان الأمر الذي ينعكس على طبيعة استقباله للمعنى ، ومتابعته للمتكلم ، ومن أمثال ذلك قوله :

إمّا قَتيلٌ وإمّا هَالِكٌ، ... والشّيبُ شَيْنٌ لمن يَشيبُ (٢٦)

فالنغمة التي أشاعها تشابه الكلمات الثلاثة (الشيب – الشين – يشيب) في البيت تحرك بقوة عقل المخاطب بعد جذب سمعه ، وتحقيق إنصاته ، والانشغال بالتفتيش عن الدلالة الكامنة خلف هذه الألفاظ المتشابهة .

ونلاحظ هنا أن التأثير المنبعث من التجنيس بين كلمتي (الشيب ـ يشيب) يقويه ، ويدعمه اللفظ المتخلل بين الكلمتين ، وهو لفظ (شين) ، وهو تأثير مقصود ، لأنه لو أراد أن يمحو هذا التأثير ، أو يستغني عنه لما تأبّى عليه ذلك ، ولا استعصى عليه فيما هنالك ، لأن كلمة (عيب) تؤدي المعنى نفسه – مثلاً – وهي تماثل كلمة (شين) في عدد الحروف ، والوزن ، ولكنه اختار لفظاً يجري بحروفه في مجرى حروف الكلمتين اللتين توسطهما مسهماً بقدر كبير في النغم المنبعث منهما ، ومقوياً للصدى الذي يقرع سمع المخاطب في خلابة رقيقة بظاهر متفق في اللفظ مختلف في المعنى ؛ لأن الكلمتين اللتين توسطهما من أصل واحد ، فابتعد قليلاً بلفظ (شين) في المعنى ، وجري به في مجراهما عن طريق التشابه في ثلثي الكلمة ، وهو من الجناس الناقص الأمر الذي أحكم النغم ، وجعله ألذ في السمع ، وأعجب في المعنى .

وقوله :

تَصبُو وأنّى لكَ التّصابي؟ ... أنّى؟ وقَد راعَك المَشيبُ (٢٧)

فبين قوله (تصبو – التصابي) جناس ناقص يحقق ميزة للعبارة لا تحقق من دونها ، ومن الملاحظ أنه جناس بين فعل ، واسم ، وهو ما يسمى بجناس الاشتقاق الذي يحقق – مع ما يحققه من الناحية الصوتية – تأكيد المعنى كما يمهّد للاستفهام الذي يحكى التعجب من حاله في رغبته في التصابي مع تطاول الزمان به ، والبعد في إحساس الشاعر عن زمان التصابي، والذي أكّده بالجملة

٢٦ ديوان عبيد الأبرص ٢٠

٢٧ ديوان عبيد الأبرص ٢١

المحققة بسبق الوقوع في الزمن الماضي ، يسبقها حرف التحقيق (قد) في قوله (وقد راعك المشيب) والتعبير بلفظ الروع تعبير في تمام المناسبة عن أثر الشيب في قلب الشاعر . ووجدانه .

وقوله :

وكلّ ذي إبلٍ مَوْرُوثٌ، ... وكلّ ذي سَلَبٍ مَسْلُوبُ (٢٨)

والجناس بين لفظي سلب ومسلوب ، وهو جناس بين اسمين أكد المعنى ، وبعث نغمة عذبة ميزها صوت الصفير الذي تمتاز به السين مع المعنى العميق الذي يقرر وقوع التفريق بين كل مالك ، وملكه .

وقوله :

وكلّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ، ... وغائبُ المَوْتِ لا يَؤُوبُ (٢٩)

والجناس هنا بين غيبة ، وغائب ، ولا يخفى ما فيه من تأكيد المعنى ، ومداعبة السمع ،وكذلك الجناس الناقص بين يسأل وسائل في قوله:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ ... وسَائِلُ اللّهِ لا يَخيبُ

ونلاحظ أن صوت السين في كلمة الناس قد أسهم في تقوية نغمة الجناس بين يسأل وسائل ، وهو ما سيدور عليه الكلام في الحديث عن أثر الحرف الواحد حين يتكرر في عدة كلمات متتابعات ، وأثره في الموسيقى الخاصة بالعبارة ، والمعنى الذي جرى في ركابه ، ومآزرته للجناس الاصطلاحي ، وهو ما سنتناوله في الفصل الثالث – إن شاء الله .

وكذلك قوله :

وما ينهض البازي بغير جناحه ... ولا يحمل الماشينَ غيرُ الحواملِ

ومنه جناس القلب: وهو ما اختلف فيه اللفظان في ترتيب الحروف، نحو (حار ، وراح) في قول عَبِيدُ بن الأبرص :

يا حارِ ما رَاح من قَوْمٍ ولا ابتكَرُوا ... إلا والموت في آثارهم حادِي

يا حار ما طَلَعت شمسٌ ولا غَرَبتْ ... إلا تُقَرِّبُ آجالا لميعاد (٣٠)

---

٢٨ ديوان عبيد الأبرص / ٢١ .

٢٩ ديوان عبيد الأبرص / ٢٢ .

٣٠ ينظر الأبيات بهذه الرواية في العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، وهي في الديوان بلفظ مختلف ص : ٥٥ .

ومنه الجناس المذيّل: وهو ما يكون الاختلاف بأكثر من حرفين في آخره، كقوله:

والشّيبُ شينٌ لمن أرسَى بساحتِه ... لله درُّ سوادِ اللمّة الخالي

فبين (الشيب ، والشين) جناس لأن الكلمتين اختلفتا في آخر حرفين فيهما .

ومنه الجناس المطرّف: وهو ما يكون الاختلاف بزيادة حرفين في أوله، كقوله:

وبَاصَ وَلاصَ مِنْ مَلَصٍ مَلاصٍ ..... وَحُوتُ البَحرِ أسوَدُ ذو مِلاصِ (٣١)

فبين باص ، ولاص جناس مطرف ، وبين ملص وملاص جناس ناقص .

ومنه الجناس المضارع : وهو ما يكون باختلاف اللفظين في حرفين، مع قرب مخرجهما . كقوله :

فالْتجَّ أعلاهُ ثم ارْتجَّ أسفلهُ ..... وضَاقَ ذرعاً بحملِ الماءِ منصاحِ (٣٢)

فبين (التج) و(ارتج) جناس مضارع لاختلاف اللفظين في حرفين، مع قرب مخرجهما ، ومعنى التج أحدث صوتاً ، وارتج أي اهتز، ومنصاح أي : فائض، والمعنى أن السحاب أحدث صوتاً شديداً ، واهتزازاً ، ثم تفجر بالماء الكثير الذي كثر فيه ، فانهمر بغزارة، ثم فاض ، وجرى على الأرض ، وهذا الجناس زاد العبارة حسناً في السمع ، وعلوقاً بالخاطر كما زاد المعنى توكيداً بعد أن لفت الأسماع إليه .

على عكس الجناس في قوله :

تُلاوِصُ في المَداصِ مُلاوِصَاتٌ ..... له مَلْصَي دَوَاجِنَ بالملاصِ (٣٣)

فبين قوله المداص ، والملاص جناس من هذا النوع كما أن هناك جناساً ناقصا بين أكثر كلمات البيت غير أنه كثر عن الحد .

ومنه الازدواج: وهو تجانس اللفظين المجاورين مثل قوله :

طافَ الخيالُ علَينا لَيلةَ الوادي، ... من آلِ سَلمى ولم يُلممْ بميْعادِ

فبين (لم) و (يلمم) تجانس ، وهما متجاورتان .

شغف عبيد بالجناس خرج به إلى التكلف أحياناً .

٣١ ديوان عبيد الأبرص / ٧٣ .

٣٢ ديوان عبيد الأبرص / ٤٦ .

٣٣ ديوان عبيد الأبرص / ٧٣ .

ونلاحظ أن الشاعر يميل إلى المجانسة ، والمزواجة والجمع بين الكلمات التي تشتمل على الحروف نفسها لاسيما الصوت المقصود المناسب للمعنى انظر إلى قوله :

جاوزتُ مهمهَ يهماها بعيهمة ... عيرانةٍ كعلاةِ القينِ معقومهْ ([٣٤])

العيهمة: الضخمة. ويقال تمهمه: إذا تلبث، وإنما اشتقاق المهمه من ألاّ يتمهمه فيه الركبُ: أي لا يتلبثون منْ خوفه. واليهماءُ: العمياء التي لا أعلام بها. وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتعوذُ من الأيهمين، وهما السيلُ ، والجمل الهائج، وهما الأعميان ([٣٥]) وقال أبو عبيدة يقال: إنهما السيل والحريق ويقال في / أحدهما إنه الجمل الصؤل الهائج، وإنما سمي أيهما لأنه ليس مما يستطاع دفعه ولا ينطق فيكلم ، أو يستعتب، ولهذا قيل للفلاة التي لا يهتدي فيها الطريق : يهماء ([٣٦]) .

ومع أن الجناس في البيت اصطلاحي ، ولكنه يقرر تلك الحقيقة لدى عبيد ، وهي ميله إلى الجمع بين الكلمات التي تتشابه في الحروف ، أو بعضها ، وتختلف في المعنى ، وهو مفهوم الجناس الذي أحسن الشاعر توظيفه لخدمة المعاني ، وصرف الأسماع إليه ، وثبّت المعاني في القلوب في أكثر شعره ، غيره أنه خرج إلى الاستثقال ، والتكلف في قليل من المواضع ، ومنها البيت السابق الذي يُشعر أن فيه تنافراً بين الكلمات في البيت نتج عن كثرة التكرار للكلمات المشتبهة الحروف ، وفيه لوناً من تنافر الحروف بسبب كثرة تكرار الهاء بعيدة المخرج مع العين ، وإذا أردت أن تتأكد من هذا الأمر أعد قراءة البيت ورددده :

جاوزتُ مهمهَ يهماها بعيهمة ... عيرانةٍ كعلاةِ القينِ معقومهْ

وقد ذم المتقدمون ، والمتأخرون من الأدباء ، والبلغاء ، وأهل صناعة الشعر التكلف فيه ، ومدحوا السجية ، والطبع ، وقد بيَّن الإمام عبد القاهر علاقة التجنيس بالمعنى ، وذم الاستكثار منه دون داعٍ قال : (فقد تبين لك أن ما يُعطي التجنيس من الفضيلة، أمرٌ لم يتمَّ إلا بنُصْرةِ

---

٣٤ منتهى الطلب في أشعار العرب لابن المبارك / جـ ١ ص : ٥٩ . ، ولم يذكرها محقق الديوان .

٣٥ كتاب العين / المؤلف: الخليل بن أحمد الفراهيدي / ١/ ١٠١/ الطبعة: الثانية في إيران / الناشر: مؤسسة دار الهجرة / تاريخ النشر: ١٤٠٩ .

٣٦ غريب الحديث لابن سلام / لابي عبيد القاسم بن سلام الهروي / جـ ٣ / ١١٣ / الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ١٣٨٥ / ١٩٦٦ .

والفائق في غريب الحديث لمحمود بن عمر الزمخشري / ٤ / ١٣١/ تحقيق : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم / الطبعة الثانية / الناشر : دار المعرفة – لبنان .

المعنى، إذ لو كان باللفظ وَحْدَهُ لما كان فيه مستحسنٌ، ولما وُجد فيه معيبٌ مُستهجَن، ولذلك ذُمَّ الاستكثار منه والوَلُوعُ به .

وذلك أن المعاني لا تَدين في كل موضع لما يَجْذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خَدَمُ المعاني والمُصرَّفةُ في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستهَا، المستحقّةَ طاعتها، فمن نَصَرَ اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهَته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه، وفيه فَتْح أبواب العيب، والتَّعرُّضُ للشَّيْن،.... وإنّ الخِلْقَةَ، إذا أكثر فيها من الوَشْم والنقش، وأُثْقل صاحِبُها بالحَلْي والوَشْي، قياسُ الحَلْي على السيف الدَّدَان، والتوسُّعِ في الدعوى بغير بُرْهان، كما قال:

إذا لم تُشاهِدْ غَيْرَ حُسْن شِيَاتِهَا ... وَأَعْضَائها فالحُسْنُ عنك مُغَيَّبُ) (٣٧)

وإذا نظرنا إلى هذا الصنيع في بيت عبيد من جانب آخر قد نجد هذا الثقل ، وتلك الغرابة ، وذلك التعثر في النطق ، والجهد في قراءة البيت يتناسب مع المعنى الذي يعرضه عبيد حيث إنه يتحدث عن فلاة مخيفة متسعة يضل فيها غير الماهر بها ، وفي تصويره لهولها ، والمبالغة في هذا التصوير باللفظ الثقيل الغريب الذي يحتاج إلى مجهود ، والمعنى المجسَّد للخطر مشاكلة بين الألفاظ ، والمعاني ، وفي هذا الصنيع إدلال بشجاعته ، وجرأته في ركوب الأخطار التي لا يجترئ عليها إلا طبقة الفحول من الفرسان الشجعان – من جهة – وإدلال بشاعريته ، وتنويه بملكه لنواصي البيان من جهة أخرى ، وقد قال قبل هذا البيت :

هذا ودويّةٍ يعيا الهُداةُ بها ... ناءٍ مسافتُها كالبُردِ ديمومَهْ (٣٨)

والدوية التي يدوي في الصوت ولا يسمع ، واللفظ يصور الضياع الذي يبلغ الصوت فيه مداه ولا يجد له مجيباً ، وديمومة: اشتقت من دممت الشيءَ فهو مدموم، أي سويته، وإنما جعلها كالبرد لآثار الرياح ، والبيت يبيِّن جانباً من أخطار هذه الفلاة التي يضل بها الهداة الذين هم أعرف من غيرهم بها لاتساع مسافتها ، وتشابه معالمها ، وخلوها من كل معين ، ومع ذلك قطعها الشاعر بخبرته وشجاعته ، وقال بعده :

أرمي بِها عرُضَ الدَّويِّ ضامرةً ... في ساعةٍ تبعثُ الحرباءَ مسمومَهْ (٣٩)

---

٣٧ أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر : ٧ وما بعدها .

٣٨ ديوان عبيد الأبرص ص : ١١١ .

وهو في هذا البيت يقرر أنه – رغم كل هذه الأخطار – يقطعها في أشد أوقات الخطر ، وهذا الشعور الكامن في نفسه بشجاعته ، وقوته ، وخبرته ، وجرأته على الأخطار مع رغبته في التعبير عن نفسه دفعه إلى صياغة هذا البيت بهذا التركيب الغريب الذي يعكس شيئاً من طبيعة المعنى الذي يقرره .

وهذا ما كان يحمله على استعراض قدرته البيانية مع قدرته ، ومهارته الحياتية التي يتميز فيها عن أقرانه لكن عبيدا قد خرج من هذا الحد المقبول إلى التكلف البَين ، وإذا أردت أن تتأكد من تجاوز عبيد لحد الفطرة – أحياناً – فتأمل قوله حين أكثر من الجناس حتى أثقل ، وهو يصف الأسماك ، وتفلتها ، وسرعة حركتها في إشارة إلى قدرته في البيان ، وصعوبة إدراك خصومه له :

إذا ما باص لاح بصفحتيه ..... وبيَّض في المكر وفي المحاص

تلاوص في المداص ملاوصات ..... له ملصي دواجن بالملاص

وباص ولاص من ملص ملاص ..... وحوت البحر أسود ذو ملاص ([40])

ومعنى باص أسرع ، والمحاص الرجوع ، أو المفر يقصد أن الحوت عندما يسرع في الماء كراً وفراً يحدث موجاً أبيض .وفي البيت الثاني تلاوص بمعنى تخادع ، والمداص المغاص من الماء ، والملص جمع مليص ، وهو السمك ، ودواجن أي مقيمة ، والملاص المتفلتة المنسلتة ، والمقصود أنه تخافه الأسماك ، وهي في مواضعها في البحر ، وتحاذر أن ينقض عليها فيبتلعها ، وفيه إشارة إلى خوف الشعراء من مباراته في الشعر .

كما أن كثرة الكلمات الدالة على شدة التفلت ، وصعوبة السيطرة تشي بمهارته ، وحسن محاورته للشعراء ، وعدم قدرة خصومه على إدراكه ، وقد توصل إلى هذا المعنى عن طريق كلمات تشابهت حتى صارت تتفلت في النطق وتحاور المتكلم في محاولة ضبطها كما يحكي معناها ، وقد خرج بها إلى حد أدخلها في باب الاستكراه بعد أن أخرجها من باب الفصاحة .

وأنت تجد الصوت المسيطر على البيتين البارز بنغمته هو صوت الصاد لكثرة تكراره ، وتتابعه والصاد حرف مهموس رخو مستعلٍ مطبق ، وفيه صفير غلب على النغم في البيت أضف إلى ذلك تكرار حرف اللام ، والميم في أكثر الكلمات ، وهو ما شوش على الموسيقى الخاصة

٣٩ ديوان عبيد الأبرص ص : ١١٢ .

٤٠ ديوان عبيد الأبرص / ٧٣ .

بالبيت ، وأخل بفصاحته بسبب تنافر الكلمات ، وإذا تأملت الأبيات التي تليه وجدت أن الأمر فيها أظهر ، والتكلف لذلك أبين ، وهو ما خالف فيه الفطرة السليمة إلى استعراض القدرة البيانية في المجانسة ، والمزاوجة الأمر الذي جعل السمع يمجه ، بعد أن أثقل اللسان بنطقه قال بعد ٥ :

وباص ولاص من ملص ملاص ..... وحوت البحر أسود ذو ملاص ([41])

والمعنى الذي يريد أن يقرره أن السمك يظل يتحرك ، ويتخفى بغية الانزلاق من الكف كي لا تستمكن من القبض عليه ، وفي البيت من استعراض القدرة التعبيرية أكثر مما فيه من المعاني ، وهو ما حاد به عن الفطرة السليمة في تعاطي الجناس ، وصرفه عن التعامل مع الخيال ، والمعنى إلى التركيز على التجنيس ، والجرس العالي في النغم المزعج .

وليس هذا من الصنعة المقبولة التي كان يقصدها الشعراء – أحياناً – كما قال عدي بن الرقاع :

وقَصِيدَة قد بِتُّ أَجْمَعُ بَيْنَها ... حَتَّى أُقَوِّمَ مَيْلَها وسِنَادَها

نَظَرَ المُثَقِّفِ في كُعُوبِ قَنَاتِهِ ... حَتَّى يُقِيمَ ثِقافُه مُنْآدَها ([42])

لأن هذه الصنعة قصد بها إصلاح ما يمكن أن يطرأ على الشاعر المطبوع من بعض الخلل الذي ينتج عن الإرتجال في الشعر ، وحتى الصنعة التي احتفى بها المتأخرون لا تخلو عن الجهد في تحقيق الغاية قال الشيخ أبو موسى: (لا تظن أن إرسال المعاني على سجيتها يعني الخلو من المجهود ،والبعد عن الاحتفال ،والاحتشاد ، والمكابدة ؛ لأن إرسالها إنما يكون بعد المعاناة في الكشف عن مخبآتها ،واستخراجها من مضابنها ،وجمع أوابدها ،واقتناص شواردها ،فإذا ما توافت ، وصدع فجرها ،وتألق ألقها ،ورأيتها تهادت ، وحامت كالطيور البيض ، فأرسلها على سجيتها ،واتركها تناغي من الألفاظ ما هو أشبه بها)([43])

ولا يشفع لعبيد عن هذا الصنيع في الأبيات ، وأمثالها قصد المجانسة في اللفظ ، والمعنى من حيث تصوير كليهما للتفلت ، وسرعة الحركة ، وصعوبة السيطرة التي يرمز بها للتعبير عن ذاته

٤١ ديوان عبيد الأبرص / ٧٣ .

٤٢ ديوان عدي بن الرقاع العاملي (٩٥ هـ ٧١٤ م) ص : ٣٥ ت : جمع وشرح د : حسن محمد نور الدين / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .

٤٣ مدخل إلى كتابي عبد القاهر / د: محمد محمد أبي موسى / ١٣٣ /الطبعة الأولى /١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م /مكتبة وهبة .

في محاورته للفرسان في المعارك ، والشعراء في المنافرات ، والمساجلات الأدبية في المجالس ، والأسواق ، والأندية ؛ لأن الجناس بأشكاله المعروفة بالفطرة لدى عبيد ، وغيره لا يصلح في كل وقت ، ولا في كل موضع ، لاسيما مع تتابعه الذي يشي بتكلفه ، وسرعان ما تنفر منه الطبيعة ، ويمجه السمع ، ولعل عبيد بن الأبرص في أبياته السابقة التي غصت بالجناس كان يقصد إلى الإدلال بقدرته على الصياغة ، وقدرته على التلاعب بالألفاظ ليبلغ خصومه بأنه شديد المحال صعب المراس لا يقام له ، ولا يجارى في البيان .

المبحث الثاني

علاقة حرف المبنى بالمعنى الذي يؤديه اللفظ الوارد فيه وجناس الحرف الواحد

السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المبحث هو : هل هناك علاقة بين حرف المبنى ، وبين المعنى الذي يؤديه اللفظ الوارد فيه ؟

وقد دار جدل واسع في هذه المسألة بين علماء اللغة قديماً ، وحديثاً في محاولة الإجابة عن هذا السؤال .

فقد خلق الله الجهاز الصوتي للإنسان بحيث يمكنه أن يعبر عن مختلف المشاعر الإنسانية المكنونة في وجدان البشر ، ولو نظرنا إلى حروفنا العربية لوجدنا أنها مشحونة بمختلف هذه المشاعر ؛ وكل هذا لم يأت بين عشية ، وضحاها ؛ وإنما كان نتيجة أزمان طويلة ، وثمرة أجيال عديدة .

فقد اشتغل الإنسان العربي على أعضاء نطقه كثيراً ؛ لترويضها على التلفظ بأصوات حروف لغته بالطريقة التي توحي بالمعاني ، قال ابن جني عن إحساس العربي بالحروف ، وبالدلالة الصوتية التي يمكن أن تتناسب مع أداء بعض المعاني في دلالة الكلمات (فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم ، واسع ، ونَهْج مُتْلئِب عند عارفيه مأموم . وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سَمْتِ الأحداث المعبرِّ بها عنها فيعدلونها بها ، ويحتذُونها عليها .

وذلك أكثر مما نقدّره وأضعاف ما نستشعره من ذلك قولهم : خَضِم وقضِم . فالخَضْم لأكل الرَّطْب كالبطّيخ والقِثّاء وما كان نحوهما من المأكول الرَطْب . والقَضْم للصُلْب اليابس نحو قضمتِ الدابّة شعيرها ونحو ذلك ، وفي الخبر قد يُدْرَك الخَضْم بالقَضْم أي قد يدرك الرخاء بالشدّة واللين بالشَظَف) ([٤٤]) .

يقرر ابن جني في الفقرة السابقة أن هناك ربطاً بين الألفاظ ، وما يشاكل أصوات أحداثها عن نطاق واسع في استعمال العربي ، الذي لاحظ هذه الحقيقة في مرحلة مبكرة من بناء اللغة ، وفي مراحل متقدمة من نشأتها .

٤٤ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ج : ٢ ص: ١٥٧ تحقيق : محمد علي النجار / الناشر : عالم الكتب – بيروت .

بل الأكثر من ذلك لطفاً ، والأدق استعمالاً أنهم قابلوا بين أول الحدث ، وأول الكلمة باختيار الحرف المناسب لأول الحدث ، ثم لثانيه ، ثم لآخره ، وهذا يشير إلى قمة الإحساس بالمعنى ، والرقي في العقلية العربية .

قال ابن جني : (ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر ، والحكمة أعلى ، وأصنع . وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف ، وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّر عنها بها ترتيبهَا وتقديم ما يضاهي أوّل الحدث ، وتأخير ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوسطه سَوْقا للحروف على سَمْت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب .

وذلك قولهم : بحث . فالباء لغلظها تُشبه بصوتها خَفقة الكفّ على الأرض ، والحاء لَصحلها تشبه مخالب الأسد ، وبراثِن الذئب ، ونحوهما إذا غارت في الأرض ، والثاء للنفث ، والبث للتراب . وهذا أمر تراه محسوسا محصَّلا ، فأيُّ شبهةٍ تبقى بعده ؟ أم أيّ شك يعرض على مثله ؟...

ومن ذلك قولهم : شدّ الحبل ونحوه . فالشين بما فيها من التفشيّ تشبُّه بالصوت أوّل انجذاب الحبل قبل استحكام العَقْد ثم يليه إحكام الشدّ والجذب وتأريب العَقْد فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين لاسيما وهي مدّغمة فهو أقوى لصنعتها وأدلّ على المعنى الذي أريد بها . ويقال: شدّ وهو يُشِدّ . فأما الشدّة في الأمر فإنها مستعارة من شدّ الحبل ونحوه لضرب من الاتّساع والمبالغة على حدّ ما نقول فيما يشبه بغيره لتقوية أمره المراد به .

ومن ذلك أيضا جرّ الشيء يجره قدّموا الجيم لأنها حرف شديد وأوّل الجرّ بمشقّةٍ على الجارّ والمجرور جميعا ثم عقّبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر وكرّروها مع ذلك في نفسها . وذلك لأن الشيء إذا جُرّ على الأرض في غالب الأمر اهتزّ عليها واضطرب صاعدا عنها ونازلا إليها وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلَقِ . فكانت الراء – لما فيها من التكرير ولأنها أيضا قد كررت في نفسها في (جرّ) و (جررت) – أوفقَ لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها . هذا هو محجَّة هذا ومذهبه) ([٤٥]) .

٤٥ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ج : ٢ ص: ١٦٢ .

وقد جعل ابن جني لذلك بابا أطلق عليه :باب في تصاقُب الألفاظ لتصاقُب المعاني ، وذكر فيه أشكال التقارب بين الألفاظ ، لتقارب معانيها قال فيه: (هذا غَوْر من العربية لا يُنتصَف منه ولا يكاد يُحاط به . وأكثر كلام العرب عليه وإن كان غُفْلا مسهوّا عنه . وهو على أضرب :

منها اقتراب الأصلين الثلاثيين كضيّاط وضَيْطار ولُوقة وألوْفة ورِخْو ورِخْوَدٌ .... ومنها اقتراب الأصلين ثلاثيّا أحدهما ورباعيّا صاحبُه أو رباعيّا أحدهما وخماسيّا صاحبه كدَمِث ودِمَثْر وسَبِط وسِبَطْرٍ ولؤلؤ ولآل والضَبَغْطَى والضَبَغَطْرَىَ ...

ومنها التقديم والتأخير على ما قلنا في الباب الذي قبل هذا في تقليب الأصول نحو (ك ل م) و (ك م ل) و (م ك ل) ونحو ذلك . وهذا كله والحروف واحدة غير متجاورة . لكن من وراء هذا ضرب غيره وهو أن تتقارب الحروف لتقارب المعاني ، وهذا باب واسع) ([٤٦])

وهذا الباب الذي فتحه ابن جني بعبقريته باب عظيم يحتاج إلى وقفات طويلة في مراجعة ألفاظ اللغة ، مع دراسة عميقة لمعانيها .

ومن ذلك قول الله سبحانه : (ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تَؤُزُّهم أزّا) (مريم ٨٣) أي : تزعجهم وتقلقهم . فهذا في معنى تهزُّهم هزّا والهمزة أخت الهاء فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين . وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ لأنك قد تهزّ ما لا بال له كالجِذْع وساقِ الشجرة ونحو ذلك)([٤٧]) .

ونص ابن جني يشير إلى عدة أمور يتميز بها هذا الباب منها :

١- أنه لا يُنتصَف منه ، وأنه واسع جدا لا يكاد يُحاط به ، ويرجع هذا إلى أنه يتسع باتساع اللغة فيحتاج من يريد أن يحيط به إلى الإلمام بمفردات العربية ، وهو أمر لا يتسنى إلا لنبي ، ولأنه يحتاج إلى مئات السنين مع تفريغ النفس ، وبذل الجهد ، واستنفاذ الطاقة .

٢- شيوعه في أكثر اللغة ، وهو ما يقرر صعوبة الإحاطة به .

٣- ومع هذا فهو مسهو عنه ، إما لهذه الصعوبات البالغة في تتبعه ، والوصول فيه إلى غاية ، وإما لخفائه ، ودقته ، وهي أمور تستلزم إعادة النظر في هذا الباب للكشف

٤٦ الخصائص - جـ ٢ / ص ١٤٧ .

٤٧ الخصائص - (ج ٢ / ص ١٤٧) .

عن مزاياه ،والبحث في أسرار هذه الحروف ، وطبيعة اتصالها ، وقد ذكر من الضرب الثالث التقديم ، والتأخير في تقليب الأصول نحو (ك ل م) و (ك م ل) و (م ك ل) ونحو ذلك مما تتشابه فيه الحروف لتشابه المعاني ، وقد أشار الشيخ أبو موسى إلى أن المعنى الذي تدور حوله المادة ليس راجعا إلى ترتيب الحروف ؛ لأن هذا متغير في الاشتقاق الأكبر ،وإنما راجع إلى جملة معاني الحروف ،ولابد بأن تقرَّ بأنَّ للحروف معاني ،وأن هذه المعاني ناشبة في الحرف تقدم في الكلمة ، أو تأخر ، أو جاء وسطا) (٤٨) .

وعلى هذا فإن تتابع الحرف الواحد في الكلمات المتعددة يعكس صدى المعنى الذي يقرره المبدع ويعطي جزءاً من هذا المعنى وهو ما تحاول هذه الدراسة البحث فيه خلال هذه الصفحات في محاولة لفتح باب الدراسة في هذا الجانب الذي يكشف قيمة هذا النغم الخفي ، ويبيِّن تأثيره على المخاطب ، وتأثيره في بث المعنى الذي يريده الشاعر في نفس المتكلم .

وقد كان ابن جني بما عرض في تمام القناعة بهذا الأصل الذي أكثر من الاستشهاد له ، وافترض ما يمكن أن يدور بخلد البعض من الاعتراضات ، أو ما يمكن أن يصادفهم من نقيض ما قرر ؛ فردَّ عليهم قبل أن يعترضوا ، وهو من تمام فطنة الرجل ، وقناعته بما قرر .

قال : (فإن أنت رأيت شيئا من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه ولا يتابعك على ما أوردناه فأحد أمرين إما أن تكون لم تنعم النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه أو لأن لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقصُر أسبابها دوننا كما قال سيبويه : أو لأن الأوّل وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر) (٤٩) .

وعلى ذلك فالمعاني التراثية الفطرية للكلمة العربية ، وأصول استعمالاتها هي محصلة المعاني الكامنة في الحروف الهجائية التي تشارك في بنائها ... ، فالثاء – مثلا – إنما هي تأنيق للسين الرقيقة، وتأنيث لتاء التأنيث. وكأني بالعربي لم يبدع صوت هذا الحرف إلا خصيصاً للأنثى، ليميزها بالثاء حتى من النساء أنفسهن، إيفاء لحقها من الرقة ، والدماثة ، والإحاطة واللين.

٤٨ مراجعات في أصول الدرس البلاغي / د محمد محمد أبو موسى ص ــ ١٤٥ / الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥ مكتبة وهبة .

٤٩ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ج : ٢ ص: ١٦٢.

فما كل امرأة تتوافر فيها خصائص الأنوثة ، وإن كانت أنثى. فلفظة الأنثى إنما هي ألصق بالجنس من لفظة المرأة قد قصّرت أنوثة الأشياء ، والكائنات الحية عن أنوثة الجنس في حرف الثاء، فأُنّثتْ بتاء التأنيث. تفيض الثاء عليها من خلف هذا الحجاب الشفاف طيف رقة ، وعاطفة ، وأنوثة لتستقل الثاء وحدها بعرش الأنوثة في لفظة الأنثى ، ضمّاً للنون الأنيسة إلى الثاء الأنثوية، الأمسّ بالنفس حسّاً، والأوقع في السمع جرساً ... (٥٠) .

وإذا كان للحرف المفرد دلالة تلحظ عند العربي – لاسيما الجاهلي – فإنه لابد ، وأن يوظفها بالتناسق مع غيرها لتؤدي الوظيفة التي يرجوها بالصورة التي يرتضيها ، وعلى هذا تقوم هذه الدراسة بمحاولة إلقاء الضوء على أثر تتابع الحرف الواحد في العبارة ، وتأثيرّه ، وألوان هذا التأثير ، فلا يجب أن تهدر مثل هذه القيمة المعتبرة لدى العربي ، والتي لها اتصال ، وتأثير في المعنى من جهة ، واتصال ، وتأثير في اللفظ من جهة أخرى يتمثل في النغم الرقيق العذب الذي يعمل عمل السحر في التأثير في الوجدان .

إشارة الإمام عبد القاهر إلى جناس الحرف الواحد ، ووقفة الشيخ أبي موسى عندها (جناس لم يثغر بعد).

التقط الشيخ أبو موسى هذه الدرة من قول الإمام عبد القاهر في حديثه عن أنواع الجناس : (وضربٍ لا يبلغ ذلك المبلغ، ولكنه شيءٌ يجري في الخاطر) وأشار إلى نوع من الجناس يشبه أثره حفيف الرياح الناعمة ، ونسمات الربيع اللينة ، وهو ما اتفقت فيه بعض الكلمات الثلاثية في حرف واحد .

ولست مع الشيخ في قصر هذا اللون على الكلمات الثلاثية ، وإن كان الأثر فيها أظهر ، والنغم المنبعث أقوى لأنه حينئذ يمثّل ثلث الكلمة .

وقد فتح له باب هذه المسألة قول الإمام عبد القاهر بعد حديثه عن الجناس (ويبقى في تتبع هذا الموضع كلام حقه غير هذا الفصل ، وذلك حيث يوضع) وأخذ إشارة الإمام عبد القاهر عندما تعرض للحديث عن ضروب التوهم في درجات المشابهة في الجناس فقال : (وضرب يجري في الخاطر) قال الشيخ أبو موسى : وأحسب أنه يدخل في الثاني الذي يجري في

٥٠ خصائص الحروف العربية ومعانيها – دراسة – حسن عباس ص : ١٥– منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨

الخاطر هذا التجانس الذي لم يثغر بعد كما في قوله :(وإذا الوُحوشُ حُشرت) (تكوير الآية ٥) و (سبح اسم ربك الأعلى) (سورة الأعلى الآية ١) إلى آخر ما قدمناه .

ثم قال (أي الإمام عبد القاهر) :(وأنت تعرف ذلك ، وتتصور وَزْنه إذا نظرت إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشَبَهَ التامَّ ؛ والشيئين يشبه أحدُهما بالآخر على ضرب من التقريب ، فاعرفه)([٥١]) الشبه التام مثل سميته يحيي ليحيا ، والذي على ضرب من المقاربة مثل لاحت ملامحه (وعليه عقدت عوذي) وكان الشكر للكرماء خصلاً) .

وإذا كنت تتردد في ذلك فراجع أصول هذه الكلمات وهي (على ، وعقد ، وعاذ) و(كان ، وشكر ، وكرم) ، وهي ثلاثية ، واتفقت في حرف ، ولو أنها اتفقت في حرفين ، وقلنا على ، وعلم ، وعلق ، وكتم وكتع لكانت من الجناس الاصطلاحي بمعنى أن الاشتراك في الثلثين جناس اصطلاحي فهل تقدر الاشتراك في ثلث أصوات الكلمة ، وتجعل ، و (كان الشكر للكرماء) مثل :(وصار الشكر للأجواد) ، وتجعل و(عليه عقدت عوذي) مثل : (وربطت عليه شيمي؟) أم أننا لو فعلنا ذلك كان إهداراً لشيء من حلاوة الكلام ، وعذوبته ، ورنينه ، ونغمه ؟ وقد قلت إنه إذا لم يكن جناس قد بلغ رشده فلنعتبره جناساً لم يثغر بعد ، أو تعتبره مضغة مخلقة ، أو غير مخلقة وإن لم يمكن فلنعتبره علقة ، وهكذا ولنا فيه قبل الميلاد فسحة ([٥٢])

فقد فهم الشيخ أبو موسى من كلام الإمام السابق أن هناك أموراً تتعلق بالجناس تركها الإمام عبد القاهر لموضعها ، ولكن لم يُهمل حتى يقررها ، وبنا على إشارة الإمام فهمه لهذا اللون الذي تحيط بجرسه ، ورنينه المعرفة ، ولا تدركه الصفة ، وهو من صميم الجناس ، ولا ينبغي أن تهدر قيمة هذا اللون .

وقد أشار الشيخ أبو موسى إلى فضل التعبير بعبارة يسكنها هذا النغم الرقيق مثل:(عليه عقدت عوذي) الذي يشبه السحر ، وبين التعبير المغسول عن هذا النغم مثل: (ربطت عليه شيمي) وكيف يهدر مثل هذا اللون اللطيف في حين أنهم ألحقوا بالجناس أشكالاً ملؤها التكلف وألوانا من البديع ليس لها كبير فائدة .

---

٥١ أسرار البلاغة / ١٩ .

٥٢ مدخل إلى كتابي عبد القاهر / ١٢٢ .

قال الخطيب القزويني بعد أن عرض لألوان البديع: (هذا ما تيسر بإذن الله – تعالى – جمعه ، وتحريره من أصول الفن الثالث ، وبقيت أشياء يذكرها فيه بعض المصنفين ، منها ما يتعين إهماله لعدم دخوله في فن البلاغة نحو ما يرجع في التحسين إلى الخط دون اللفظ مع أنه لا يخلو من التكلف ككون الكلمتين متماثلتين في الخط. وكون الحروف منقوطة ، أو غير منقوطة ، ونحو ما لا أثر له في التحسين كما يسمى الترديد ، أو لعدم جدواه نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين)([٥٣])

أما مثل هذا اللون من النغم الساحر من الجناس فهو يلوح ، ويهفهف في خفة لا يكاد يلحظ شكلاً ، ولكنه أقوى أثراً من كثير من ألوان البديع التي اخترعها المتأخرون ، وتفننوا فيها ، وليس لها كبير فائدة .

أمر آخر في هذا اللون من النغم الخفي ، والذي يعتمد حرفا واحداً في ملاحظة الجناس ، وهو أن ملمح هذا الحفيف ، ونوع هذا النغم يتحدد عن طريق نوع الحرف ، فكل حرف له حفيف خاص ، وله رنين متميز ، وجرس يرجع إلى طبيعة مخرجه ، وطريقة نطقه ، ومن هنا تجد تنوعاً واسعاً لأنغام هذا اللون يتنوع بها أثره تأمل هذه المقطوعة من شعر عبيد ، وانظر ودقق في الحرف الغالب على البيت ، أو على شطر البيت ، ورددده حتى تستشعر النغم الخاص والموسيقي الداخلية ، والخارجية لكل حرف :

طافَ الخيالُ علَينا لَيلةَ الوادي، ... من آلِ سَلمى ولم يُلممْ بميْعادِ
أنّى اهتَديتَ إلى مَن طالَ لَيلُهُمُ ... في سَبسبٍ ذاتِ دَكْداكٍ وأعقادِ
يُكَلّفُونَ فَلاها كلّ يَعْمَلَة ... . مثلَ المَهاةِ، إذا ما حَثّها الحادي
أَبلِغْ أبا كَرَبٍ عنّي وأُسْرَتَهُ ... . قولاً سَيَذهَبُ غَوراً بعدَ إنجادِ
لا أعرِفَنّكَ بَعْدَ اليَومِ تَندُبُني ... ... وفي حَياتيَ ما زَوّدْتَني زادي
أمّا حِمامُكَ يوماً أنتَ مُدرِكُهُ ... .. لا حاضرٌ مُفلتٌ منهُ، ولا بادِ ([٥٤])

تجد الصوت العالي الغالب المتصدر هو صوت حرف اللام الذي تكرر في أكثر كلمات البيت (الخيال – إلى – علينا – ليلة – الوادي – آل – سلمى – لم – يلمم) ، ومخرج اللام (ما بين أوّل

٥٣ الإيضاح في علوم البلاغة ٦ / ١١٨ .

٥٤ ديوان عبيد الأبرص ٥٥ .

حافّة اللسان ، ومن أدناها إلى منتهى طَرفَ اللسان ما بينها ، وبين ما يليها من الحنك الأعلى ومما فويق الضاحك ، والناب ، والرباعية ، والثنية مُخرج اللام) (٥٥) وهو حرف مجهور . والجهر : هو انحباس النفس عند النطق بالحرف لاقتراب الوترين الصوتيين من بعضهما اقتراباً شديداً . فيضيق الفراغ فيخرج الصوت قوياً لقوة الاعتماد على المخرج ، وهو أيضاً منحرفٌ شديد منفتحٌ له خصوصية في مخرجه ، تميزه عن غيره من الحروف تناسب التذكار ، والحنين إلى الحبيب في ليالي الوديان الصافية البديعة التي تساعد على حالة الهيام ، وتذكر الليالي ، والأيام ، من جهة ، وتتناسب مع القوة في سيطرة هذا الخيال الجامح الذي يصوِّر الشاعر هجومه دون موعد فيما يشبه القهر في طَرْق الخيال ، والسيطرة على عقل الشاعر ، وتهيج الشوق في قلبه من جهة أخرى .

وتجد الشطر الثاني من البيت يغلب عليه نغم آخر يسيطر على العبارة يطغى على صوت اللام التي سيطرت على الشطر الأول ، وبعض الشطر الثاني ، وهو صوت الميم بخصائصه المميزة ، والتي سيأتي الحديث عنها ، وقد تكررت في عدد من الكلمات (من – سلمى – لم – يلمم – بميعاد) وهو ما يتآذر مع الجناس الاصطلاحي بين كلمتي (لم ، ويلمم) الذي أحدث خلابة وروعة في المعنى ، واللفظ ، وقد تناسب صوت الميم ، والذي يجمع المتكلم فاه عند النطق به مع معنى الجمع في آل سلمى ، ومدلول الميعاد الذي يدل على اللقاء ، والاجتماع .

وإذا نظرت إلى البيت الثاني تجد صوت اللام بنغمته الخاصة يسكن أكثر كلمات الشطر الأول (إلى – طال – ليلهم) وفي الشطر الثاني يسكن نغماً آخر سكن في صوت الدال الذي تردد ثلاث مرات متقاربات في قوله (دكداك – أعقاد) وساعد على وضوح النغمة ، وبروزها ذلك التضعيف في الكلمة الأولى الذي يصوِّر بوزنه حركة الحدث ، والاضطراب عن طريق ترديد الدال ، والكاف، الذي يصور تجمع الرمال واستوائها .(٥٦)

وفي البيت الثالث تجد صوت اللام يعود بقوة ، وبتتابع حيث سكن مجموعة الكلمات (يُكَلَّفُونَ – فَلاها – كلَّ – يَعْمَلَهِ – مثلَ – المَهاةِ – الحادي) ومن الجدير بالذكر أن موقع اللام في أول الكلمة غير موقعها في وسط الكلمة ، أو آخرها فلكل موضع تأثيره الخاص ؛ لأنه يتأثر بأصوات

٥٥ اللباب في علل البناء والإعراب المؤلف : أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله ج ٢/ ٤٦٢ / تحقيق : غازي مختار طليمات الناشر : دار الفكر – دمشق / الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ . كتاب اللامات المؤلف : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق / ١/ ١٥٢/ تحقيق : مازن المبارك دار الفكر – دمشق / الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ .

٥٦ والدَّكْداك من الرمل ما تكَبَّس واستوى وقيل هو بطن من الأرض مستو أو هو ما الّتبد بعضه على بعض (لسان العرب جـ ١٠/ ٤٢٤) .

غيره من الحروف ، ويتفاعل معها ، وهو ما يجعل تنوع هذا النغم غير منته ؛ لأننا إذا نظرنا إلى الصوت المجاور له في أول الكلمة أو آخرها أو وسطها سنجد تنوعاً كبيراً في النغم وقد تكرر معه صوت الهاء عدة مرات في قوله : (فلاها – المهاة – حثها) .

وفي البيت الرابع يعلو صوت الياء الذي تكرر عدة مرات في قوله (اليَومِ – تَندُبُني – في – حَياتيَ – زَوَّدْتَني – زادي) بالإضافة إلى الجناس الاصطلاحي الناقص بين زودتني ، وزادي وهو ما زاد النغم سحراً في التأثير ، وجعله أكثر قبولاً في السمع مع دلالة ياء المتكلم على الخصوصية التي تشي باعتزاز المتكلم بنفسه ، واعتداده بمكانته .

وفي البيت الخامس يعلو نغم جديد بشكل جديد نتج عن تكرار صوت الميم الذي تكرر في عدة كلمات في قوله : (أمَّا – حِمامُكَ – يوماً – مُدرِكُهُ – مُفلِتٌ – منهُ) ، ولا شك أن الصوت المميز لحرف الميم بما فيه من غنه له تأثير عميق في تشكيل النغم المنبعث من البيت أعد قراءة البيت ، وتأمل النغم المنبعث من تكرار حرف الميم :

أمَّا حِمامُكَ يوماً أنتَ مُدرِكُهُ ... لا حاضرٌ مُفلِتٌ منهُ، ولا بادِ

المبحث الثالث

النغم الخفي (جناس الحرف الواحد) في شعر عبيد الأبرص .

ذكرنا سابقاً أن سرَّ هذا النغم يعود إلى التأثير الصوتي العذب الرقيق دون أن يظهر المؤثر ظهوراً كاملاً فهو يظهر حيناً ، ويخبو حيناً ، كما أن له اتصالاً بالمعنى إذا أُحسن استغلال خصوصية المعنى الناشب في الحرف – إذا ثبت أن العربي كان يلحظ هذا المعنى – وبذلك يبدو هذا الصنيع جليل القيمة عظيم المنفعة ، وفيه دلالة على عبقرية العربي مبدعاً ، ومتلقياً .

ولهذا النغم الرقيق في شعر عبيد الأبرص خصيصة ترجع إلى عدة أمور منها ميل عبيد إلى التجنيس كثيراً . الاصطلاحي منه ، والذي يقوم على حرف واحد كالذي بين أيدينا ، وفحولة عبيد ، وفطنته مكنتاه من السيطرة على أعنة البيان ، وإدراك خصائص الأصوات في الحروف ، وأثر المعنى الناشب فيه ؛ فوظّفه أحسن توظيف ، وقدّم عن طريقه أجمل الأنغام التي سكنت كثيراً من قصائده ، وميزته عن غيره من الشعراء ، وعبَّرت عن مشاعره ، وأحاسيسه ، وخواطره ، ووجدانه أتمّ تعبير تأمل قوله :

لمنْ جمالٌ قبيلَ الصُّبحِ مزمومهُ ... ميمّمات بلاداً غيرَ معلومَهْ
عالينَ رقماً وأنماطاً مظاهرةً ... وكلّة بعتيقِ العقلِ مرقومَهْ
من عبقريٍّ عليها إذ غدوْا صبحٌ ... كأنّها منْ نجيعِ الجوفِ مدمومَهْ
كأنّ ظعنهمُ نخلٌ موسَّقةٌ ... سودٌ ذوائبها بالحملِ مكمومَهْ
فيهنَّ هندٌ وقدْ هامَ الفؤادُ بها ... بيضاءُ آنسةٌ بالحسنِ موسومَهْ (٥٧)

تأمل تكرار الميم في البيت الأول (لمن – جمال – مزمومة – ميممات – معلومة) ودقق في جرس هذا الحرف الذي يخرج من الشفة ، ويصير إلى الخياشيم للغنة التي فيها ، وكأن الشاعر يصبُّ فيها حزنه للفراق ؛ فيتمتم به ليصبَّ مشاعره المكبوتة ، وحيرته بَعدهم .

وقد بدأ بإعلان هذا الشعور بهذا الاستفهام الذي يدل على الحيرة ، والتخبط (لمن جمال ...؟) ساعده في ذلك حرف الميم بجرسه ، وإن كانت بعض هذه الكلمات رباعية ، ولكن تكرار حرف الميم ، وتوزيعه بطريقة معينة في النطق مكّن لهذا الشعور بأن ينطلق فيها ، بطريقة ترتاح لها أسماع المخاطبين ، وترقد بمساعدته في وجدانهم فيشاركهم هذا الإحساس ، ويشاطرونه هذا الشجن

٥٧ ديوان عبيد الأبرص / ١٣٤ .

الغائر في أعماق نفسه لفراق المحبوبة الذي تمتم بذكر رحيلها مع تكرار حرف الميم لما صُدم بمرأى القوم في استعدادهم للرحيل .

كما أن المعنى الناشب في حرف الميم ، وهو معنى الاجتماع كأنه يصور هذا الاجتماع الحزين قبيل رحيل المحبوب مع أهله ، ويجسِّد هذا الحشد الأسود - في نظر الشاعر - لهذا الحدث فـ(الميم حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه فوضعته العرب علماً على الجمع فقالوا للواحد: أنت ، فإذا جاوزه للجمع قالوا: أنتم ، كذلك في المتصل يقولون: ضربت ، وضربتم ، وإياك ، وإياكم ، وإياه ، وإياهم ، ونظائره نحو: به وبهم.. إلخ . وقد تكون الميم في بعض الألفاظ للتعظيم ، فقد قيل : زيدت الميم في لفظ (اللهم) للتعظيم والتفخيم كزيادتها في زرقم، قال ابن فارس : الزرقم: أجمع أهل اللغة أن أصله من الزرق؛ فإن الميم فيه زائدة.(٥٨)

وهذا المعنى الناشب في الحرف قد وظّفه الشاعر بطريقة فطرية تصور ذلك الاجتماع الذي يتهيأ فيه ركب المحبوب للرحيل مخلفا هذا الشعور العميق بالأسى ، والحزن في نفس الشاعر والذي سرعان ما طغى ، وثار من داخله ليصبغ به الوجود من حوله ، ويشرك كل سامع في محاولة لتخفيف هذا الضغط النفسي من الأشجان ، والأحزان ، والمشهد لم يزل في عينيه لإبل تُزم ، ومتاع يجمع ، ورسوم تزال ، ومعالم تُدرس ، ومكان يقفر .

تأمل قوله في موضع آخر، وهو يتحدث على طول عمره ، وكيف بث الكلمات التي ضمت حرف الميم في البيت الذي يشير إلى تجمع السنوات ، وما فيها من حوادث ، وخبرات :

مائتي زمان كامل ونضيَّة ... عشرين عشت معمَّرا محمودا

أدركت أوَّل ملك نصر ناشئا ... وبناء شدَّاد وكان أبيدا

وطلبت ذا القرنين حتَّى فاتني ... ركضا وكدت بأن أرى داودا (٥٩)

فقد تصدر حرف الميم العدد الضخم الذي يقرر طول عمره (مائتي)، وهو ما يتناسب مع الضم الذي يحدث عند النطق به ، وتوسطت لفظ (الزمان) الطويل الذي قطعه في الحياة ، وجاءت ثالثة في اللفظ الدال على اكتماله ، ثم جاءت متوسطة في آخر لفظين في البيت أحدهما يدل على طول

(٥٨) مقاييس اللغة لابن حـ ٣ / صـ ٥٣ ت عبد السلام هارون - الطبعة الثالثة مكتبة الخانجي ١٤٠٣هـ ١٩٨١.

٥٩ - ينظر ديوان عبيد الابرص / ص ٤٨ .

المكث ، والآخر على حاله في مكثه في لفظ يدل على ضم خلال احمد .

ثم انظر إلى القاف في البيت الثاني :

عالينَ رقماً وأنماطاً مظاهرةً ... وكلّةٍ بعتيقِ العقلِ مرقومَهْ

في قوله : (بعتيق – العقل – مرقومة) ثم انظر إلى النون في الثالث (كأن – ظعنهم – نخل) وقد جاءت النون في نهاية الأولى ، وتوسطت الثانية ، وتصدرت الثالثة ، وهي حرف مجهور شديد متسفّل منفتح ذو غُنّة (٦٠) وكأنها أنين صدره كلما صدرت كلمة من صدره قفز إليها يحمل شحنة من هذا الشجن تخفف عنه بعض ما يجد ببثه في جموع السامعين .

وفي البيت الرابع تجد الهاء في الشطرة الأولى (فيهن – هند – هام – بها) والهاء حرف رخو مهموس خفي ضعيف ، وكأنه يحكي بطبيعة صوته حالة ضعفه ، وما يعانيه في حبها ، والهيام بها ، وقد اعترته حالة من الرقة تذوب فيها حشاشة قلبه مع تكرار هذا الحرف الذي شمل ثلث اسمها ، والحب شديد التأثر ، ولو بأقل من ذلك ، ثم إن عمق مخرج الهاء في الجوف كأنه ينبئ بحبها الدفين في حنايا النفس بين الضلوع ، ويشفُّ عما في الضمير المكنون من تباريح الهوى في لحظة الفراق .

تأمل توزيع هذا الحرف في موضع آخر من شعره في قوله :

عَيْنَاكَ دَمْعُهُما سَرُوبُ ... كأنّ شَائِيْهِما شَعِيبُ

واهِيَةٌ أو مَعِينٌ مُمعِنٌ ... مِن هَضَبَةٍ دونَها لُهُوب (٦١)

والمعنى في البيت الأول يقول : أن عينيك كثيرة الدمع لا ينقطع دمعها كأن العرقين المسيلين للدمع قد قطعا كالقربة الضعيفة المثقوبة التي يسيل ماؤها من فوق هضبة بين جبلين ، وإذا تأملت اختياره للكلمات تجد أن لحرف الهاء فيها دلالة قوية تتآذر فيما بينها لأداء المعنى الذي يقرره ، ويبعث نغماً رقيقا يسري سريانا خفياً بين الكلمات ، ويجعل بينها خيطا دقيقاً ينظمها جميعاً ، وهي (واهية – هضبة – لهوب) بالإضافة إلى صوت الهاء في الضمير المتصل بالظرف المتمم للصورة (دونها) .

٦٠ اللباب في علل البناء والإعراب / أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري/٢/٤٦٤ / ت: غازي مختار طليمات / دار الفكر – دمشق / الطبعة الأولى ، ١٩٩٥..

٦١ ديوان عبيد الأبرص / ٢٠ .

فالأولى تحكي الضعف ، والثانية تحكي الارتفاع المقوي لاندفاع الماء ، والضمير المتصل بالظرف (دون) يساعد في بيان قوة اندفاع الماء ، ولفظ (لهوب) يصور المهوى الذي يشير إلى أن هذا الدمع ، ومجراه ليس له مدى ، والهاء بغور مخرجها تحكي جزءً من دلالة الكلمة لأن معنى لهوب يشير إلى عمق المهوى ؛ لأنها جمع لهب ، وهو المهوى بين جبلين ، ولا ننسى تأثير الجناس بين ممعن ، ومعين من ناحية الموسيقى ، وتأكيد المعنى .

وتأمل حرف الصاد وتأثيره في موسيقى البيت ، ومناسبة صفات الحرف لمعنى القوة الذي يعبر عنه الشاعر في قوله :

كالكوكب الدُّري يشرق متنه ... خَرِصاً خَميصاً صلبه يتأودُ (٦٢)

والشاعر يصف ثوراً أبيضاً ألجأه المطر والبرد القارص وهو في شدة الجوع إلى شجرة وشبه ظهره في هذا البيت بالكوكب في شدة بياضه ، وقد بات هذا الثور طاوياً من شدة الجوع والبرد ، وتتابع حرف الصاد بالصفير المميز له يعلن عن تلك الحال ، ويصور حالة التصلب والجمود التي يشعر بها من كانت تلك حاله بين شدة البرد ، والجوع .

عبقرية عبيد الأبرص في رصد خصوصية الحرف ، وإحساسه بطبيعته ، والمعنى الذي يجلّي أبعاده .

يتميز عبيد بالإحساس الرقيق في التعامل مع أصوات الحروف الذي يتناغم مع المعنى الذي يقرره فيتسقا معاً في نظم مبدع حقق به التميُّز ، والتفوق على كثير ممن عاصروه ، وتلوه من الشعراء تأمل حرف السين ، وأثره في بقية البيت ، وعلاقته بالمعنى الذي يشدو به في قوله :

فيهنَّ هندٌ وقدْ هامَ الفؤادُ بها ... بيضاءُ آنسةٌ بالحسنِ موسومَهْ (٦٣)

وحرف السين بما فيه من صوت الصفير الذي شدا بإحساسه بحسنها لما أراد أن ينبئ بجانب منه في قوله (آنسة – بالحسن – موسومة) وهو حرف صفير خرج به من الحديث عن اسمها ، وهيامه بها ، والتي سيطر عليها حرف الهاء الذي يحكي ضناه إلى صوت السين الذي علا في حديثه عن جمالها ، وكأنه نشط في إبراز محاسنها التي هي سبب هيامه ، ومعلوم أن حرف السين صوت مهموس يناسب الحنين الذي ينبعث في قلب المحب عند ذكر محاسن المحبوب .

تأمل قوله :

٦٢ ديوان عبيد الأبرص ٥٦ .

٦٣ ديوان عبيد الأبرص ١١٠ .

وبيت يفوح المسك من حجراته ... تسديته من بين سر ومخضوب (٦٤)

والمعنى : دخلت هذا البيت الذي ينبعث المسك من حجراته بين هذين المكانين (سر ومخضوب) وهما موضعان لبني أسد ، وتجد حرف السين الذي توسط لفظ (مسك) وجاء ثانياً في لفظ تسدَّى ، وتصدر كلمة (سر) وهي اسم موضع لبني أسد قد أشاع نغمة خاصة مزجت بصوت الصفير فيه ، والسين – كما ذكرنا – حرف مهموس ، وهو الذي ضعف الاعتماد عليه فجرى معه النفس ، وهو ما يتماشى مع انسياب تدفق أريج المسك ، وضوعة الطيب المنبعثة من البيت كما أنه يتناسب مع معنى الولوج في قوله (تسديته) الذي يعني دخلت إليه .

كما أن صوت الياء في هذا البيت يشارك بنغمته الخاصة التي ربطت بين الكلمات (بيت – يفوح – تسديته – بين) وطبيعة النغمة المنبعثة من حرف الياء ، وهو من حروف اللين التي تتناسب مع المعاني المُعبَّر عنها ، وهو بحسب مخرجه ، ومخرج الحرف هو الحيز الذي من خلاله يخرج الحرف ، وإذا خرج من غيره تغير صوته فتغير مدلوله فتغير المعنى ، وهذا النغم الذي يشيعه تكرار حرف الياء نتج عند النطق بالياء حيث تكون مقدمة اللسان (رأس اللسان) عند الأسنان السفلي ، ويعلو اللسان في منطقة وسط اللسان أي منتصفه بدون التصاق ، ولا يوجد جزء من أجزاء الفم يقطع الصوت .

وهذا الجوف الذي هو مخرج الياء يحكي باتساعه المسافة التي قطعها الشاعر حتى بلغ منزل الحبيب ، وهو إن لم يكن بعداً حسياً ، فهو بعد معنوي في إحساس الشاعر بتطاول الزمن في أثناء المسير لشدة اشتياقه ، وهذا في لفظ (بيت) وربما حكى رحابة المنزل ، أما في كلمة (يفوح) فإن هذا الاتساع يصور المدى الذي انتشر فيه طيب الريح ، وضوعة الطيوب التي تنبعث من بيت الحبيب ، وقد يكون هذا – أيضا – شعوراً نفسياً لدى الشاعر أكثر منه عبيراً حسياً .

وفي كلمة (تسديت) يوحي الاتساع بمعاناته في تخطي الأسوار ، ومحاولة الولوج ، وفي كلمة (بين) يوحي إلى سعة المسافة بين المكانين كما أن الياء من حروف اللين ، واللين يناسب معنى السكينة الذي يوحي به لفظ (بيت) ، ويناسب ضوعة المسك من الفعل المضارع المصور لاستمرارية انسياب الطيب (يفوح) وهو أيضا متناسب مع التسلل المفهوم من الفعل (تسديته) .

٦٤ ديوان عبيد الأبرص / ٣٣ .

وانظر هنا إلى حرف اللام ، وأثره الذي يمثّل مبعث النغم المحيط بالبيت ، والذي يحقق سيطرة الأسلوب في قوله :

يا صاح مهلاً أقل اللوم يا صاح ... ولا تكونن لي باللائم اللاحي (٦٥)

المعنى الذي يقرره في هذا البيت فيه التماس ، وطلب من صاحبه أن يقلل اللوم ، والعزل ، وصوت اللام مناسب لهذا المعنى معين بصفاته على إبرازها فمن صفاته أنه حرف مجهور منحرفٌ شديد ، وهو ما يتناسب مع أسلوب الأمر في اسم فعل الأمر (مهلاً) وفعل الأمر (أقل) كما يتناسب مع دلالة اللوم ، والملاحاة .

وعندما يريد أن يصور شيئا من الاضطراب ، والتوتر في البيئة المحيطة به يعلو في كلامه الصوت المناسب لهذا المعنى المعين على تجسيد هذا المشهد تأمل قوله :

يا منْ لبرقٍ أبيتُ الليلَ أرقبهُ ... في مكفهرٍّ وفي سوداءَ مركومهْ

فبرقُها حرقٌ، وماؤها دفقٌ ... وتحتها ريقٌ، وفوقها ديمهْ (٦٦)

وهو يصور حال البيئة المحيطة به بعد أن زُمّت جمال المحبوبة ثم ارتحلت ، وخلفت في قلب اضطراباً ، وخفقاناً جراء تلك الحال ، وحزناً على فراقها أرّق نومه ؛ فطار النوم من عينيه ؛ فظل يرقب حال البيئة من حوله ، وكأنها منفعلة معه في ظلام يشبه يأسه من ، وصل المحبوب الذي ارتحل ، وبرق يشبه غضبه من هذا الفراق ، ومطر كأمله في عودة اللقاء ، وكأن الطبيعة امتزجت به لتعبِّر عن حاله ، وصوت القاف بما فيه من القلقلة ، والقعقعة في تمام المناسبة للصورة التي يرسمها عبيد لحالة الطبيعة الخاصة المحيطة به آنذاك .

والمعنى الذي يريد أن يقرره في البيت الأول يقول : يا من يعين على النظرِ إلى هذا البرق ، و مكفهر: سحاب مجتمع. يريد في ليلة سوداءَ. ومركومة: قد ركمَ بعضها على بعض ، يلمع البرق في تلك السحاب المتراكمة كشهب النار ، والمطر يهطل منها بغزارة ، وتحتها غيمة بدا مطرها يهطل ، وفوقها غيمة مطرها دائم في سكون .

ولذلك نجد في هذا الاضطراب في الجو المحيط به ما يماثله في القلقلة ، والقعقعة ، والنغم المميز لصوت القاف ، وقد كثر في هذا البيت الثاني ، وسيطر ، وغلب على غيره من الأصوات

٦٥ ديوان عبيد الأبرص / ٤٢ .

٦٦ ديوان عبيد الأبرص / ١٣٤ .

فسكن في عدة كلمات (فبرقُها – حرقّ – دفقّ – ريقّ – فوقها) وهو مناسب لمعنى الكلمات التي ورد فيها ، فالبرق لا يكون إلا مع الرعد بصوته الشديد ، والحرق لا يكون إلا في جلبة ، واضطراب ، والدفق اندفاع لا يخلو من قوة الصوت ، والحركة للمدفوق بقوة الدافق ، والريق وهو الماء النازل من المطر مضطرب لا ثبات له ، والظرف (فوق) يدل على الارتفاع في هذه الظواهر المضطربة أصلاً .

كما كان يعينه الخفيف الصادر من صوت الفاء ، على إبراز الإحساس بالضجر من داخله ليمزجه بغضب الطبيعة ، وكذلك التكرار في حرف الراء الذي يصور التتابع ، والاستمرارية لتلك الحال الخارجية للكون ، وتلك الحالة الداخلية في أعماق فؤاده المغموم .

وإذا تأملت حرفاً آخر في موضع آخر كحرف الهاء الذي صدَّر به عبيد مطلع قصيدته في قوله :

هبت تلومُ وليست ساعةَ اللاحي ... هلا انتظرت بهذا اللومِ إصباحي (٦٧)

تجد لحناً عذبا وموسيقى خاصة ينبعث صداها من أرجاء البيت فيما تسري سريانا خفياً بين حروف ألفاظه ، وإذا فتشت عن سببه تجد منبعه الظاهر من هذا التصريع في البيت في نهاية صدره ، وعجزه .

ثم تشعر أن سحر النغم فيه أعمق ، وأبعد غوراً ، فإذا دققت ، وجدت تجانساً خفياً بين مجموعات الحروف ؛ فالهاء في (هبت) تصوِّر ببعد مترع الحرف من عمق الجوف معنى الفزعة ، والثورة في اللوم ، والعذل ، ثم تتصدر الهاء عجز البيت الذي يتضمن ما كان ينبغي على المحبوبة أن تفعل في أسلوب التنديم بـ(هلا) ثم تصدر صوت الهاء اسم الإشارة الذي يجسِّد الخطأ الذي يرى أن الأولى بها تركه ، ويوجه إليه الأنظار .

ثم حرف التاء الذي تكرر بقوته المعهودة في (هبت – تلوم – ليست – ساعة – انتظرت) ، وحرف التاء مهموس انفجاري شديد. وهو للاضطراب في الطبيعة الملامس لها بلا شدة ويقول عنه ابن سينا : (إن صوته يسمع عن قرع الكف بالإصبع قرعاً بقوة) (٦٨) وهذه القوة ، وهذا الاضطراب يحكي شيئاً من المعنى الذي يريده الشاعر من هذا الهبوب المفاجأ باللوم ، والعتاب .

---

٦٧ ديوان عبيد الأبرص – ص ٤٤ .

٦٨ خصائص الحروف العربية ومعانيها – حسن عباس ص : ٢ – دراسة – منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨ بتصرف

ثم إن إدغام التاء في الفعل الماضي (هبت) في الفعل المضارع (تلوم) يصور اختلاط الفعلين في الواقع للحدث الذي يقرره فاللوم كان متصلاً بالمحبوب ، أو مختلطاً به فدمج بإدغام التائين في الكلمتين بين الحدثين المنقولين ، وأنت تدرك هذا العطاء البديع في المعنى لا تعدم ذلك النغم الجميل المنبعث من هذا التركيب المتداخل عندما تكرر البيت :

هبت تلومُ وليست ساعةَ اللاحي ... هلا انتظرت بهذا اللومِ إصباحي

لذلك يجد من يتتبع هذا اللون من الجناس – إن جاز أن نطلق عليه جناساً – كثيراً من الأنغام العذبة التي تبعث في النفس طرباً ، وعجباً ، وميلاً لا تستطيع الصفة إدراكه ،وهو يحتاج إلى دراسات خاصة تنهض به لكي تجلي أبعاده ، وتوضح أثره ، وتبحث عن جذوره في عمق البيان العربي في كل حرف من حروف العربية .

تأمل قول عبيد :

تَخالُ رِيقَ ثَنَايَاها إذا ابْتَسَمَتْ ..... كَمَزْجِ شَهْدٍ بأَتْرجٍ وتُفّاحِ (٦٩)

تأمل توزيع حرف التاء والكلمات الذي وقع فيها ومدلولها في نفس الشاعر ، وكيف اختارها (تخال – ابتسمت – أترج – وتفاح) ولا ننسى أن مخرج التاء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ، وهو الموضع الذي يدور حوله المعنى في الكلام ، ويتضمنه وصف الشاعر في هذا البيت وبالتحديد بالكلمات التي ضمت حرف التاء فالكلمة الأولى تحكي عمل الخيال في استحضار الصورة ، والكلمة الثانية تحكي المشهد المحبوب في الخيال الرفاف والجمال الهفاف لثغر المحبوبة عند الابتسامة ، والكلمة الثالثة ، والرابعة تحكيان طيب رائحة الفم مع حلاوة مذاق الريق وليس أحلى منهما في وصف ريق الثنايا .

والتاء تمثل في الكلمات الثلاث حلقة الوصل عن طريق النغم التي تشيعه فيها بطبيعة مخرجها من المكان نفسه ، والحفيف الذي تحدثه فالتاء حرفٌ مهموس شديدٌ متسفّل منفتح ، ومعنى المهموس أنها حرف أضعف الاعتماد – عليه – في موضعها فجرى النفس معها فأخفاها كخفاء جمال الثغر بعد ذهاب الابتسامة .

ثم تأمل تأثير حرف الشين بما فيه من التفشي الذي يصور الشخصية الفظة التي يتحاشاها الشاعر في قوله :

٦٩ ديوان عبيد الأبرص – ص ٤٣ .

إنّي لأخشى الجهول الشّكس شيمته .... وأتقي ذا التقى بالحلم والراح (٧٠)

تجد أن التفشي في صوت الشين ، والذي يطغى بنغمته الخاصة مع تكرار الحرف على غيره من أصوات الحروف يعطي شيئاً من معاني الكلمات التي ورد فيها فكلمة (أخشى) تشير إلى انتشار الخوف مع الهيبة ، وكلمة (الشكس) تشير إلى تفشي الصفات السيئة في صاحب هذه الصفة ، والتي دعت الشاعر إلى تجنبه ، والشيمة وصف أحاط بصاحبه ، وصار علامة عليه هذا بالإضافة إلى النغمة العذبة في الجناس الاصطلاحي في قوله (وأتقي ذا التقى) وهو لا ينفك عن عمل سابقه في التأثير في صياغة النغم الآسر ، وتأكيد المعنى المقرر .

وإذا أردت أن تتأكد من ذلك فانظر في موقع الشين وعلاقتها بالمعنى الذي تعبر عنه في قوله :

وأبو الفراخ على خشاش هشيمة ... متنكباً إبط الشمائل تنعب (٧١)

تجد أن صوت الشين في أتم التعبير عن الخشخشة بدلالة صوته على معناه ، وكذلك في التعبير عن الانتفاش الفارغ في الهشيم ، كما أنه يعبر عن جزء من معنى الانتشار في المساحة التي تقطعها ريح الشمائل في البيئة المحيطة بالشاعر خلال هذه الصحاري الفسيحة .

وتأمل توزيع حرف الفاء ، وحرف القاف ، وتعاورهما في المكان وتقاربهما في المخرج ، وما يمتاز به كل حرف منهما ، واقرن بين خصائصهما ثم أعد النظر في هذا التناسق ، والترتيب تجد عجباً قال عبيد :

لله در الغول أي رفيقة ... لصاحب قف خائف متقتر!

أرفت بلحنٍ فوق لحنٍ وأبعدت ... حوالي نيرانا تبوخ وتزهر (٧٢)

ظاهرة الإكثار من الربط بالفاء في شعر عبيد وسرها .

من الجدير بالذكر أن عبيداً قد أكثر من استخدام حرف الفاء لاسيما في الربط بين جمله فيما بينها ، وبين أبياته ، وهي وإن كانت من حروف المعاني التي لا يقصد إليها البحث في هذه الحالة لأنها تؤدي معنى متقرراً مسبقاً ، وتصور حال العطف بها السرعة ، والحركة ، وكثرة التنقل ، وعدم الثبات على حال ، وتطوي له المكان ، والزمان إلا أننا ننظر إليها من جانب الصوت المخصوص

٧٠ ديوان عبيد الأبرص – ص ٤٢ .

٧١ ديوان عبيد الأبرص – ص ٢٨ .

٧٢ محاضرات الأدباء / المؤلف : الراغب الأصفهاني/ جـ ٢/ ١٠١ .

للفاء في تتابعه فهي تضفي نغماً خاصاً على بعض المطالع ، والمواضع التي مرَّ عليها ، وعاش فيها بخفيفها المعهود الذي يُخرج نفثة المصدور الضَّجِرِ على الأيام الخوالي ، ووقت الشباب ، وأماكن اللهو ، والمتعة ، وذكريات جميلة تفلتت من يديه ، وسقطت من بين أصابع الزمن ، فناسبت الفاء بهذا الخفيف الإحساس بالضجر ، والحسرة ، وهو ما لا يتعارض مع المعنى الذي تؤديه كحرف من حروف المعاني .

ولذلك نجد الفاء تسكن أخص الألفاظ الدالة على الضجر ، والتي تحكيه في اسم الفعل المضارع (أف) بمعنى أتضجر ، وغالباً ما كان يكثر من استخدام الفاء في بداية قصائده عندما يبكي الأطلال – على عادة الشعراء – ويتذكر المحبوبة ، ويبث السامعين عميق أحزانه ، وحالة وجدانه مع هذه الذكريات كقوله في إحدى قصائده :

تغيَّرتِ الدّيارُ بذي الدَّفينِ ... فأوديةُ اللّوى فرمالُ لينِ
فخرْجا ذروةٍ فلوى ذَيالٍ ... يعفّي أيهُ مرُّ السَّنينِ
تبصَّر صاحبي أترى حُمولاً ... يشبِّهُ سيرُها عومَ السَّفينِ
جعلن الفجَّ من ركك شمالاً ... ونكبن الطَّوىَّ عن اليمينِ
ألا عتبت عليَّ اليوم عرسي ... وقد هبت بليل تشتكيني
فقالت لي كبُرت فقلت حقاً ... لقد أخلفت حيناً بعد حين (٧٣)

فقد تكررت فاء المعنى مع فاء المبنى عدة مرات في البيت الأول (الدفين – فأودية – فرمال) وتكررت كذلك في البيت الثاني (فخرجا – فلوى – يعفي) وخفيف الفاء يعينه على التنقل في المعاني التي يريد أن يقررها ، والمشاعر التي يبثها كما تنقل – في الماضي – في ملاعب الصبا ، ومراتع الشباب على مر السنين يقترب من الأحباب مرة ، ويبتعدون عنه أخرى .

كذلك استخدم الفاء لتصوير سرعة تنقل حبيبته ميَّة من مكان إلى مكان لينفل إحساس الوحشة الذي يشعر به ، والذي يلازمه كثيراً لكثرة الأماكن التي تقلّب فيها المحبوب ، ثم صارت خلاء من بعده تهيج الأشواق لديه ، وتطرق في وجدانه بعمق على أبواب الذكريات لتعيد إليه في خليط من اللذة ، والأمل ما كان بينه وبين حبيبته في الأيام الخوالي ، فيعيش بهذه الذكرى لذة الأيام الجميلة ، ويعاني في الوقت نفسه الحسرة على هذا الجميل الذاهب كقوله :

٧٣ ديوان عبيد الأبرص – ص ١٢٢ .

أَقْفَرَ من أَهله ملحوبُ ..... فالقُطَّبِيّاتُ فالذَّنوبُ
فراكِسٌ فثُعَيْلباتٌ .....فذاتُ فِرْقَيْنِ فالقَليبُ
فعَرْدَةٌ فقفا حِبرٍّ ..... ليسَ بها منهُمُ عَرِيبُ (٧٤)

كما استخدمه هذا الحرف بدلالته على السرعة ، والمباغتة في وصف ما شاهده في رحلاته من صراع في الفيافي بين الحيوانات ، والطيور ، كقوله في إحدى قصائده المشهورة :

فأَصْبَحَتْ في غَدَاة قِرّة ... يَسْقُطُ عن رِيشِها الضَّرِيبُ
فأبصَرَتْ ثَعْلَباً سَرِيعاً ... ودونَهُ سَبْسَبٌ جَدِيبُ
فَنَفَضَتْ رِيشَهَا وَوَلّتْ، ... فَذَاكَ مِنْ نَهْضَةٍ قَرِيبُ
فاشتالَ وارْتَاعَ من حَسِيسٍ ... وَفِعْلَهُ يَفْعَلُ المَذْؤُوبُ
فَنَهَضَتْ نَحْوَهُ حَثِيثَةً، ... وَحَرَدَتْ حَرْدَهُ تَسِيبُ
فَدَبّ مِنْ رَأْيِها دَبِيباً، ... والعَيْنُ حِمْلاَقُها مَقْلُوبُ
فأَدْرَكَتْهُ، فَطَرّحَتْهُ ... والصّيدُ من تحتها مَكْرُوبُ
فجَدَلَتْهُ فَطَرّحَتْهُ ... فَكَدّحَتْ وَجْهَه الحَبوبُ
فَعَاوَدَتْهُ فَرَفّعَتْهُ ... فَأَرْسَلَتْهُ وَهُوَ مَكْرُوبُ (٧٥)

فقد تردد صوت الفاء في أكثر الأبيات محدثاً نغماً خاصاً يتناسب مع أكثر معاني المفردات التي ورد فيها لأن كثيراً منها يصور الحركة الخفيفة الرشيقة (فأبصرت – فنفضت – فاشتال – فعله يفعل المذؤوب – فطرحته – فأدركته – فطرحته) فالفعل الأول يصور حركة بصر طائر العقاب التي تقلبت في المكان حوله حتى وقعت على المراد ، والثانية (فنفضت) يصور الحركة المتتالية المرتعشة لصوت المنتفض والخفيف المنبعث من صوت الفاء يناسبها وفي قوله (فاشتال) الذي يصور حركة الذئب الذي رفع ذنبه خوفاً وقوله (وفعله يفعل المذؤوب) تتناسب الفاء في صوتها مع فعل المذؤوب وهو الفزع المرتاب ، وكذلك ناسبت الحركة السريعة التي تصور مطاردة طائر العقاب للثعلب ، وصراعه معه .

٧٤ ديوان عبيد الأبرص – ص ١٩ .

٧٥ ديوان عبيد الأبرص – ص ٢٥ .

كما استخدم الفاء ليحكي الضجر المختلط بمظاهر الطبيعة ، وسرعة التنقل بين أحوالها ، وكثرة الغير كقوله يصف حركة البرق ، والرعد، والمطر :

صاح ترى برقاً بتُّ أرقبهُ ... ذات العشاء في غمائم غرّْ

فحل بركه بأسفل ذي ... ريد فشن في ذي العثيرْ

فعنس فالعناب فجنبي ... عردة فبطن ذي الأجفر (٧٦)

قال صاحب معجم ما استعجم من البلدان : (هذه كلها مواضع متدانية).(٧٧)

ترديد عبيد لحروف معينة في أسماء لها فضل تعلق بقلبه ، وعقله .

من الملاحظ عند عبيد الأبرص أنه كان يجانس بين حروف معينة في اسم المحبوبة ، وبعض ما يليها من حروف كلمات البيت لإحداث نغمة معينة تنبه إلى الأصل الذي يدور حوله الحوار كقوله في حديثه عن محبوبته هند :

يا دارَ هندٍ عفاها كلُّ هطّالِ ... بالجوُّ مثلَ سحيقِ اليمنةِ البالي(٧٨)

فنجد صوت الهاء الذي تصدر اسم المحبوبة كأنه علق بجوفه ، ولا يريد أن يذهب أثر هذا الصوت من نفسه فجاء بلفظ يحويه في ضمير يعود على دار المحبوبة (عفاها) مصوراً بهذا الفعل ما أحدثت صروف الزمان بمحلها ، ثم عاد صوت الهاء في المضاف للفاعل (هطّال) الذي محا ديار المحبوبة ، وصوت الهاء يربط بين الكلمات الثلاثة برباط دقيق ، وصوت الهاء مهموس رخو خفيّ ضعيف يناسب الشعور بالحنين ، والشجن .

وقوله :

فيهنَّ هندٌ وقدْ هامَ الفؤادُ بها ... بيضاءُ آنسةٌ بالحسنِ موسومَهْ

في إنّها كمهاةِ الجوِّ ناعمةٌ ... تُدني النَّصيفَ بكفٍّ غيرِ موشومَه (٧٩)

فالهاء التي تصدرت اسمها تكررت قبله ، وبعده ، وكأنما نشبت في لسانه بعد أن علقت في قلبه ؛ فكلما همَّ بكلمة سكنتها ، وكذلك السين في الشطرة الثانية والتي توسطت أحب صفاتها (آنسة)

٧٦ ديوان عبيد الأبرص – ص ٦٢ .

٧٧ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع / المؤلف : عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي أبو عبيد / ٢/ ٦٢٨/ تحقيق : مصطفى السقا / الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣ طبعة عالم الكتب – بيروت .

٧٨ ديوان عبيد الأبرص : ١٠٢ .

٧٩ ديوان عبيد الأبرص / ١٣٤ .

المعنوية وتوسطت الوصف الجامع لأسباب الجمال (الحسن) ثم الكلمة الدالة على خصوصية ذلك بها (موسومة) وكأنها قد اشتهرت بهذا الحسن ، وعرفت به بين الجميع .

وقوله عن حبيبته سلمى :

تحاولُ رسماً من سُليمى دكادكا ... خلاءً تعفّيه الرِّياحُ سواهكا

تجد صوت السين ، وهو الصوت الذي تصدَّر اسم المحبوبة ، وعلا فيه بالصفير المنبعث منه قد تكرر في البيت ثلاث مرات كأنه أراد أن يربط بصوت الصفير المميز بين الكلمات الثلاثة ، والذي مثّلت الكلمة الأولى فيه أثر ديار المحبوبة (رسماً) ، وهو يحاول أن يتعرف عليه ، ومثّلت الثانية اسمها (سلمى) ، وما له من أثر في قلبه لا يمحى ، والثالثة (سواهك) جمع ساهكة ، وهي الساحقة أي الرياح السواحق التي فعلت فعلها في الديار كما فعلت سلمى بالشاعر بتمكن حبها في قلبه ، مع بعدها عنه ، بينما تجده في موضع آخر يكرر هذا الاسم ، ولكن يكرر اللام دون السين لارتباط الألفاظ التي تحوي المعاني التي يتحدث عنها ارتباطاً وثيقاً بهذا الاسم وهو (آل سلمى) في قوله :

طافَ الخيالُ علَينا لَيلةَ الوادي، ... من آلِ سَلمى ولم يُلممْ بميْعادِ (٨٠)

فتجد اللام تتكرر ست مرات قبل ، اسم المحبوب ، وبعده ؛ ولأن الحديث عن (آل) سلمى ، وليس عن سلمى مباشرة – وإن كان يقصدها بعينها – فكرر اللام ، ولم يكرر السين كما أن اللام هي الحرف الثاني من سلمى .

وهي حرف قوي مجهور شديد منحرف ، والقوة التي في حرف اللام تناسب المعنى العمدة في البيت ، وهو معنى سيطرة الخيال الجامح على عقل المحب ، وتهييج الشوق في قلبه ، وهو ما يفهم من لفظ الطواف الذي يشير إلى معنى الإحاطة المفاجأة دون موعد سابق ، وتهييج الذكريات في وجدانه .

وقوله عن أم سليم :

أمنْ أمِّ سلمٍ تلكَ لا تستريحُ ... وليسَ لحاجاتِ الفؤادِ مريحُ

إذا ذقتُ فاها قلتُ طعمَ مدامةٍ ... مشعشعةٍ ترخي الإزارَ قديحُ

بماءِ سحابٍ من أباريقِ فضَّةٍ ... لها ثمنٌ في البائعينَ ربيحُ

٨٠ ديوان عبيد الأبرص / ٥٥ .

كما فعل ذلك في اسمه أيضاً حين اتبعه بكلمات ضمت حرف الياء الذي تميز بموضعه من بقية الحروف في اسمه قال :

أقفر من أهله عَبيدُ ... فليس يُبدِي ولا يُعيدُ

عَنتْ له عَنَّةٌ نكُودٌ ... وحان منها له ورودُ

وصوت الياء الذي تكرر في البيت ست مرات ، من حروف اللين التي تتناسب مع الحالة التي يعبِّر عنها ، ويعيشها ، وهو يساق للموت بين يدي النعمان بن المنذر الذي قضى بقتله ، لأنه صادفه في يوم بؤسه ، ونغمة صوت الياء التي انتشرت في البيت توافقت مع المعنى لما فيها من ضعف ، ورخاوة ، ولين ، وصفات تتناسب مع المعنى كما ينسجم مع الجو النفسي للمغموم الحزين الذي أشرف على حتفه ، ولاحت له منيته ، وكفى بهذا الإحساس وهناً في القلب ، وضعفاً في البدن .

والبيت الثاني يؤكد هذا الإحساس ، ويفسر سر الموقف الذي اتخذه رافضاً أن يقول شعراً ، وقد صار إلى ما صار إليه ، فحري به أن تتثاقل الحروف على لسانه ، وتضيع الكلمات منه ، وتتبخر معانيه من عقله .

وقد تكرر حروف النون في هذا البيت في عدة كلمات (عنت – عنة – نكود – حان – منها) والجناس الاصطلاحي في البيت بين (عنت ، وعنة) يقويه تكرار النون التي تكررت في الكلمات بعده ، والنون حرف مجهور شديد متسفِّل منفتح ذو غُنّة ، والجهر ، والشدة يناسبان الصوت المكبوت في صدره يبحث عن مخلص له من هذا الغم .

كما يناسب شدة الغيظ التي تملأ قلب المقهور الذي سيق للذبح دون جناية ، والغنة في حرف النون تناسب الأنين الذي يخرج به بعض ما في صدره ، وقد شارك النون في إبراز هذا الشعور من أعماق النفس حرفان من حروف الجوف العين ، وتكررت مرتين ، والحاء مرة (عنت – عنة – حان) .

ولمّا كان للنون هذه الخصوصية – عند العربي– سكنت الكلمات المعبرة عن الألم ، والتوجع، فصوت المريض في صدره هنين ([81]) ، فإذا ظهر ضعيفاً فهو حنين ([82]) ، فإذا علا شيئاً فهو أنين ، فإذا علا أكثر فسمع فهو خنين ([83]) .

٨١ لسان العرب لابن منظور جـ ١٣ ص ٤٣٧ مادة (هنن) .

٨٢ لسان العرب لابن منظور جـ ١٣ ص ١٢٨ مادة (حنن) .

ومن الملاحظ أن الذي تصدَّر هذه الكلمات المعبرة عن التوجع ، والألم مجموعة من حروف الجوف (وحروف الجوف هي الهمز ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين ، والخاء) وهذه الحروف تصدر من أعمق مكان – تصدر منه الأصوات – داخل الإنسان ؛ وطبيعة المعنى المعبر عنه يناسبه ذلك لأن مبعث الإحساس ينطلق من أعماق الإنسان ، وفي بيتي عبيد صدق فني يكشف واقعه ، لأنه كان في أعمق حالات الصدق الفني التي تختلط بالوجدان ، وتخرج من حنايا القلب في وقت تفارق النفس كل ألوان الزيف التي قد تحيط بها في غير هذا الموقف .

ومن الملاحظ في شعر عبيد أنه كان حين يتعاطى فنون البديع مرسلاً نفسه على سجيتها مخلياً بينها ، وبين فطرتها السليمة في التعبير ؛ فإنه يبدع ، ويحسن ، وتأتي الألوان البديعيّة – عامة– ، والجناس – خاصة – من قلب المعنى ، وهي جزء لا يتجزأ منه ، أما إذا غلبته روح المنافسة ، والرغبة الجامحة في السيطرة على أزمة البيان ، وتملكه الحرص على الظهور ، فراح يستعرض قدرته البيانية ، ويتلاعب بالألفاظ فإنه يجافي الطبعة وتخبو الفطرة ، ويبدو على ألوانه البديعية التكلف ، غير أن هذا قليل في شعره .

جناس الحرف الواحد ليس قاصراً على عبيد الأبرص وحده .

قلنا – سابقاً – إن العربي – عموماً– والجاهلي – خصوصاً – أدرك العلاقة بين صوت الحرف ، وبين المعنى الذي هو بصدد تقريره ، وبنا كلماته على هذا الإحساس الناضج الراقي ، وهو ما قرره ابن جني ، ودلل عليه ، وعلى ذلك .. ؛ فهذا اللون من الجناس ليس مقصوراً على شعر عبيد – خاصة – أو شعراء الجاهلية – عامة– بل هو لون سائر عند الشعراء من بعد عبيد ، ومن قبله سرياناً خفياً يظهر مرة ، ويخفت مرة ، وهو في كلٍ لا يُعدم ذلك التأثير العجيب تأمل قول المتنبي يمدح سيف الدولة:

أيدري الرّبع أيّ دم أراقا ... وأيّ قلوب هذا الرّكب شاقا ؟!

لنا ولأهْله أبداً قلوبُ ... تَلاقَى في جسوم ما تَلاقَى

وما عَفتِ الرياحُ له محلاً ... عفاهُ مَنْ حدا بهمُ وسَاقَا

فليتَ هوى الأحبَّةِ كان عدلاً ... فحمَّل كلّ قلبٍ ما أطاقا

وقد أخذ التَّمامَ البدرُ فيهم ... وأعطاني من السَّقم المحاقا

٨٣ لسان العرب لابن منظور جـ ١٣ ص ١٤٢ مادة (خنن) .

وبين الفرعِ والقدمين نورٌ ... يقودُ بلا أزمَّتها النِّياقا
وطرفٌ إن سقى العشَّاق كأساً ... بما نقصٌ سقانيها دهاقا
وخصرٌ تثبتُ الأبصارُ فيه ... كأنَّ عليه من حدق نطاقا
سَلي عَنْ سِيرَتي فَرَسي ورُمحي ....وَسَيْفي والهَمَلَّعَةَ الدِّفَاقَا(٨٤)

تأمل توزيع حرف السين في البيت الأخير في قوله (سلي – سيرتي – فرسي – سيفي) وكيف أشاع صوت الصفير المنبعث من تكرار السين نغماً خاصاً في البيت يأسر النفس، وجرساً يطرب له السمع مما يمنح الأسلوب سيطرة مؤقتة على حواس المخاطب ، وسيطرة مستمرة بتثبيت المعنى في عقله ، وهو ما يسعى إليه الشاعر في نفس المحبوبة ، فهو يُدلُّ بتفرده ، وأنه الفارس الأوحد ، والشجاع الذي يخوض المخاوف وحده وإن كان في البيت جناس اصطلاحي إلا أن شيوع هذا الحرف في كثير من الكلمات أكسبها هذا التأثير .

ثم انظر في نفس البيت إلى الحفيف الذي أحدثه تكرار حرف الفاء في قوله (فرسي – سيفي – دفاقا) والإنسان العربي قد استخدم طريقة النطق بحرف (الفاء) للتعبير عن أحداث القطع والشق والانفراج إيماء ، وتمثيلاً ، وهو ما يتآزر في معناه مع ما يدل عليه لفظ الدفاق ، وهو يعني الناقة السريعة التي يشبه سيرها التدفق لسرعتها كما أن السيف يشق به لأعداء شقاً بقوة ضربته ، وبسرعة فرسه يشق الصفوف بالإضافة إلى هذا النغم الذي يبثه هذا النوع من تجانس الحروف بجرسها ، يتنوع بتنوع الحروف لأن لكل حرف جرساً خاصاً به .

ثم إنه يتنوع أيضا بحسب طريقة توزيع هذا الحرف في الكلمة من ناحية ، وفي العبارة من ناحية أخرى ، ثم إن التبادل الذي يحدث بين تكرار حرف السين ، وتكرار حرف الفاء يعطي تنوعاً آخر غير ما ذكرناه من تنوع الحروف ، وطريقة نثرها ، وهو أمر يتم في العقل الباطن ، ولا يُقصد مما يجعل لهذا النغم سحراً خاصاً مطبوعاً لا يُقلَّد.

تأمل قول عبد الله بن عنمة الضبي ، ودورانه مع حرف الهاء في بث شكوى الهجر ، وترديده لحرف اللام الذي احتواه اسم المحبوبة التي أضنى فؤاده هجرها (ليلى) وصار في نفسه كأنه علامة عليه ، ومختص به .

أَشَتَّ بلَيْلَى هَجْرُها وبِعادُها ... بما قَدْ تُؤَاتِينا ويَنْفَعُ زَادُهَا

٨٤ ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري / ١/ ٢٩٤ ت : مصطفى السقا وآخرون طبعة مصطفى البابي الحلبي – سنة ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م .

سَنَلْهُو بِلَيْلَى والنَّوَى غَيْرُ غَرْبَةٍ ... تَضَمَّنَها منْ رَامَتَيْن جِمَادُهَا
لَيَالِيَ لَيْلَى إذْ هِيَ الهَمُّ والهَوَى ... يُرِيدُ الفُؤَادُ هَجرَها فَيُصَادُهَا
فلمّا رأَيتُ الدَّارَ قَفْراً سأَلْتُها ... فَعَيَّ علينا نُؤْيُها ورَمادُهَا
فلم يَبْقَ إلاَّ دِمْنَةٌ ومَنازِلٌ ... كما رُدَّ في خَطِّ الدَّوَاةِ مِدَادُهَا[٨٥]

تأمل قوله : (هجرها ، وبعادها) في البيت الأول ، وكيف حكت الهاء بمخرجها البعيد شيئاً من معنى البعد الذي يعانيه الشاعر ، وكيف حكى صوت الهاء تأوه الهجر ، وألم الفراق ثم لفظتا (سنلهو – تضمنها) في البيت الثاني ، وقوله في البيت الثالث :(هِيَ – الهَمُّ – والهَوَى – هَجرَها) كيف جسَّدها في اللفظة الأولى بقوله :(هي) ثم جمع فيها النقيضين (الهم ، والهوى) ليريك موطن العجب فيها ، حيث جمعت في قلبه بين الضدين ، فهي همه من خوف الفراق ، وانتظار اللقاء ، وكيفية الوصول ، وهي هواه ، ومناه عند اللقاء ، وتحقق القرب .

تأمل كيف عمل حرف الهاء في هذه الكلمات الثلاثة خارجة من صدر المحب الذي يشكو لوعة الفراق ، ومرارة البعد ، والحنين إلى الماضي ، آهات المتوجع المشتاق الملتاع أخرجها دفقات متتاليات في صوت الهاء يطرق بها سمع المخاطب حتى لا يبتعد عن هذا الإحساس الخاص الذي يشعر به ، وحتى لا يتفلت المخاطب من أسر هذا المعنى الذي بثه في وجدانه حتى يدركه الإشفاق على صاحب هذا القلب ، فيتألم له ، ويواسيه في هذا الضنى وذلك الشعور ، ولعلها وقعت في الصوت الذي يحكي التوجع (آه) بمعنى أتوجع لهذه الدلالة المنبعثة من صوتها مع ما في صفاتها من الضعف ، والرخاوة التي تناسب حال المتوجع .

وبذلك يتقرر أن هذا اللون من الجناس – لو ألحق بالجناس – ينتشر في شعر الشعراء ، وخطب الفصحاء كغيره من فنون القول التي يتميز بها أصحاب الفطرة السليمة ، والإحساس العميق بغور العربية السابحون في بحورها إفهاماً ، وإبداعاً ، وإمتاعاً .

٨٥ المفضليات – جـ ١ / ص ٦٩ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه . عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته ، وعلى نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وآله ، وأصحابه أزكى الصلوات .

وبعد :

فقد حاولت في هذه الدراسة إلقاء الضوء على ألوان الجناس في شعر عبيد الأبرص ، والذي علت في شعره على غيرها من ألوان البديع ، وتميز فيها عبيد بحسن استخدامها ، وتوزيعها في مساحة المعنى الذي أراد تقريره .

كما ألقت الدراسة الضوء على تلك الفكرة الجرينة التي أشار إليها الشيخ أبو موسى ، والتي التقطها من درر الإمام عبد القاهر حول النغم الساحر المنبعث من (جناس الحرف الواحد) المتتابع في بعض الكلمات المتتالية ، والذي يفوق في حسنه كثيراً من ألوان الجناس الاصطلاحية التي احتفى بها كثير من المتأخرين ، وأكثرها قائم على التكلف ، وليس وراءه كبير فائدة ، بعكس هذا اللون الذي يلوح ، ولا يكاد يلحظ ، وأثره بيِّن في الموسيقى الداخلية ، والخارجية للبيت ، وقدرته في التأثير في المخاطبين ، وجذب أسماعهم ابتداءً ، وتثبيت المعنى انتهاءً ، والمساعدة في تقريره فيما بين ذلك

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة ، فأما المقدمة فبينت فيها سر اختيار الموضوع ، والهدف منه ، وسر اختيار ديوان عبيد بن الأبرص لتطبيق الدراسة عليه ، ثم خطة البحث ، أما التمهيد فقد جعلته للتعريف بعبيد بن الأبرص، وشخصيته بين الفروسية ، والشعر ، ومنزلته الشعرية .

أما المبحث الأول فقد تناولت فيه ألوان الجناس في شعر عبيد الأبرص كما أشرت إلى شغفه بالجناس ، والذي خرج به إلى التكلف – أحياناً ، و المبحث الثاني جعلته للتأصيل لطبيعة المعنى الكامن في حرف المبنى ، وحديث ابن جني عنه ، وإدراك العرب لهذه الخصوصية ، و المبحث الثالث جعلته لجناس الحرف الواحد عند عبيد ، والكشف عن تميزه فيه ، وسره مع الإشارة إلى عدم اختصاصه به وحده ، أما الخاتمة ، فقد أوجزت فيها ما تضمَّنه كما أشرت فيها إلى أهم نتائج البحث حيث ألقت الدراسة الضوء على عدة أمور :منها :

١- أن هناك معنى ناسباً في أصل حروف المباني يلوح مع تركيبه مع غيره من الحروف في الكلمة ، وأن العربي قد أدرك هذا الأصل، وجرى ما في خاطره في كلامه ، وهو ما قرره ابن جني ودلل عليه من خلال الشواهد (٨٦) .

٢- قررت الدراسة خلال البحث قيمة هذا النغم الساحر ، وعلاقته بالمعنى ، وذلك خلال تطبيقه على شعر أحد فحول الشعر الجاهلي ، وأحد أصحاب المعلقات المعدودة من عيون الشعر العربي في ذروة عصر البيان ، وهو عبيد الأبرص .

٣- تبين من خلال الدراسة أن عبيد الأبرص قد تميَّز في ألوان الجناس عامة ، وفي جناس الحرف الواحد – إن جاز تسميته بذلك – خاصة – ساعد على ذلك ذكاء عبيد ، وفطرته السليمة ، وعميق إحساسه بخصوصية الحروف ، والكلمات ، وملكته الشعرية ، وخبرته الطويلة التي ذكَّاها طول عمره ، وقدح زناد فكره بمنافسة شعراء كبار عاصرهم كامرئ القيس ، والنابغة الذبياني وغيرهما .

٤- تبيَّن – أيضاً – خلال الدراسة أن عبيد الأبرص كان يكثر من استخدام حروف بعينها ، ويكررها نظراً لمناسبتها للمعنى الذي تؤديه ألفاظها ، وتساعد فيه بأصواتها ، وصفاتها لاسيما الأسماء التي لها فضل تعلق بعقله ، وقلبه ، وهو ما يشير إلى إدراكه للمعاني الخفية الناشبة في أصوات الحروف ، وصلتها بالمعنى الذي تؤديه .

٥- أشارت الدراسة إلى التنوع الكبير للنغم المنبعث من هذا النوع من الجناس ، وأن هذا التنوع الواسع من النغم مرجعه إلى عدة أمور منها :

أ- كثرة الحروف ؛ لأن لكل حرف صوته الخاص الذي يتميز به نظراً لطبيعة مخرجه ، وصفاته الخاصة التي ينفرد بها عن غيره .

ب- طبيعة تفاعل صوت الحرف مع أصوات غيره من الحروف ، فإن النغم الصادر عن تكرار الحرف يختلف باختلاف الحرف المجاور له .

جـ – وضع الحرف المكرر من الكلمة التي ورد فيها حيث لاحظت الدراسة اختلاف تأثير الحرف باختلاف مكانه في أول الكلمة ، أو وسطها ، أو آخرها .

---

٨٦ الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ج : ٢ ص: ١٥٧.

د- أكثر ما يتضح ، ويتميز جناس الحرف الواحد في الكلمات الثلاثية ؛ لأنه حينئذ يمثّل ثلث الكلمة ، وهو ما رآه الشيخ أبو موسى ، وإن كنا نرى أن تأثير تتابع الحرف الواحد يحدث في الكلمات الثلاثية ، وغير الثلاثية ، ومرجع ذلك إلى إحساس المبدع بتأثير صوت الحرف ، والمعنى الذي يلوح منه .

٦- تقترح الدراسة إلحاق هذا اللون من تكرار الحروف الخادم للمعنى الباعث للنغم العذب بالجناس ، وتسميته بجناس الحرف الواحد ، وهو ما أشار إليه الشيخ أبو موسى تحت عنوان (جناس لم يثغر) وبناءً على ما تقدم في البحث نرى أن هذا الجناس له تأثير قوي ، ولكنه خفي ، وهو ما يزيده سحراً ، ويضفي على العبارة حسناً (٨٧).

٧- تبيَّن خلال الدراسة أن الجناس من أبرز ألوان البديع في ديوان عبيد الأبرص ، وأن أكثر ألوان الجناس ، وروداً في شعر عبيد هو الجناس الناقص ، وأن الشاعر قد أجاد في استخدامه ، وأحسن توظيفه لأداء المعاني التي أرادها .

٨- استطاع عبيد أن يحقق عدة فوائد باستخدام الجناس منها :

أ- سيطرة الأسلوب على حواس المستمعين .

ب - تحقيق الإنصات بلفت الانتباه ، وجذب السمع .

ج - تحقيق تفوق نسبي على خصومه في مساجلاته ، ومنافراته . أسهم فيه الجناس بدور كبير .

د - ساعد في تحقيق الذيوع ، والانتشار لكثير من قصائده بتيسير الحفظ ، وتناقل الركبان .

٩- جاء الجناس في شعر عبيد طبعياً لا تكلف فيه باستثناء بعض المواضع التي حاول فيه عبيد أن يستعرض قدرته البيانية ، ويتلاعب بالألفاظ أمام خصومه لاسيما ، وهو يتحدث عن محاورته لهم ، وصراعاته معهم ، ومحاولاتهم اللحاق به في المنزلة الأدبية ، وفي المكانة الاجتماعية كسيد في قومه ، وفارس له منزلته (٨٨) .

(هذا وبالله التوفيق وعليه التكلان ونستغفره من التقصير والخطأ إنه كريم حليم)

---

٨٧ مدخل إلى كتاب عبيد بن الأبرص / ١٢٢ .

٨٨ ينظر البحث (شغف عبيد بالجناس دفعه إلى التكلف أحياناً) ص : .

فهرس المراجع

- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني / ت: محمود محمد شاكر / الطبعة الأولى / ١٤١٢ هـ ١٩٩١م / مطبعة المدني .
- الأعلام للزركلي/ الناشر:دار العلم للملايين/ الطبعة: الخامسة أيار (مايو) ١٩٨٠م .
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني /ت : سمير جابر/ الطبعة الثانية/دار الفكر/ بيروت .
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني / تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي / طبعة ثالثة / ط.دار الكتاب اللبناني / بيروت - ١٣٩١هـ ١٩٧١م.
- البيان والتبيين ، أبو عثمان بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م.
- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري / ت : د : حفني محمد شرف / طبعة لجنة إحياء التراث العربي / ١٩٨٥م.
- التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية د/ شفيع السيد/ ط دار الفكر العربي الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.
- جمهرة أشعار العرب جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام /المؤلف : أبو زيد القرشي ت محمد على البيجاوي- طبعة نهضة مصر سنة ١٩٨١.
- خصائص الحروف العربية ومعانيها – دراسة - حسن عباس – منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩٨.
- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني تحقيق : محمد علي النجار / الناشر : عالم الكتب – بيروت .
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر / ت : محمود محمد شاكر / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ١٩٩٢م مطبعة المدني بالقاهرة .
- ديوان عدي بن الرقاع العاملي (٩٥ هـ ٧١٤ م) ت : جمع وشرح د : حسن محمد نور الدين / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .
- ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري / ١/ ٢٩٤ / ت : مصطفى السقا وآخرون /طبعة مصطفى البابي الحلبي – سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

- ديوان عبيد الأبرص / شرح / أشرف أحمد عدرة / الطبعة الأولى سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م دار الكتاب العربي – بيروت .
- غريب الحديث لابن سلام / لابي عبيد القاسم بن سلام الهروي / الطبعة الأولى بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد ١٣٨٥ / ١٩٦٦ .
- الفائق في غريب الحديث لمحمود بن عمر الزمخشري / تحقيق : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم / الطبعة الثانية / الناشر : دار المعرفة – لبنان .
- كتاب العين / المؤلف: الخليل بن أحمد الفراهيدي / الطبعة: الثانية في إيران / الناشر: مؤسسة دار الهجرة / تاريخ النشر: ١٤٠٩ .
- كتاب اللامات المؤلف : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق / تحقيق : مازن المبارك دار الفكر – دمشق / الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ .
- اللباب في علل البناء والإعراب المؤلف : أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله / تحقيق : غازي مختار طليمات الناشر : دار الفكر – دمشق / الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ .
- لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري / : دار صادر – بيروت .
- مدخل إلى كتابي عبد القاهر / د: محمد محمد أبي موسى / الطبعة الأولى /١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م /مكتبة وهبة .
- مراجعات في أصول الدرس البلاغي د: محمد محمد أبو موسى / الطبعة الأولى / مكتبة وهبة / ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .
- المستقصى في أمثال العرب ، : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري / الطبعة الثانية ، ١٩٨٧ / دار الكتب العلمية – بيروت .
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع / المؤلف : عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي أبو عبيد /تحقيق : مصطفى السقا / الطبعة الثالثة ، ١٤٠٣ طبعة عالم الكتب – بيروت .
- المعلقات العشر ،وأخبار شعرائها للشيخ محمد الأمين الشنقيطي / ط دار النصر للطباعة والنشر .

- مفتاح العلوم للسكاكي / ت : نعيم زرزور / طبعة دار الكتب العلمية – بيروت / الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧ م .
- مقاييس اللغة لابن فارس / ت عبد السلام هارون – الطبعة الثالثة مكتبة الخانجي ١٤٠٣هـ ١٩٨١.